

عَقْلُنَا التَّسْلِيمُ

إِطْلَالَةٌ عَلَى عَقْلَانِيَّةِ التَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ



تأليف
مُحَمَّدُ بْنُ جَازِي

مِفْكْرُونَ
الدَّوْلَةُ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

عَقْلَنَةُ التَّسْلِيمِ

إِطْلَالَةٌ عَلَى عَقْلَانِيَةِ التَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ

عَقْلَنَةُ التَّسْلِيمِ

إطّلاعة على عقلانية التسليم لله ورسوله ﷺ

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع:

٢٠٢٥ / ٤٧٠٠ م

الترقيم الدولي:

٩٧٨-٩٧٧-٦٨٠٤-٩٦-٨

القاهرة: 201008526072 + 

201110117447 +

201026771992 +

السعودية: 966596447741 +

Mofakroun INT   

info@mofakroun.com 

www.mofakroun.com 

حقوق الطبع محفوظة للناسر



عَقْلَنَةُ التَّسْلِيمِ

إِطْلَالَةٌ عَلَى عَقْلَانِيَةِ التَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ

تَأْلِيفُ

مَهْدِ بْنِ جَازِي

الإهداء

إلى من كانت عونًا لي في أمر ديني ودنياي أهدي
هذا الكتاب؛ إلى والدتي: فوز بنت حامد السليمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين..

وبعد،

أقدم لك -أخي القارئ- هذا الكتيب في عصرٍ تلاطمت فيه التيارات، وتضاربت فيه الآراء بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشر، ولا سبيل إلى الاهتداء تحت وطأتها وتعدد أنساقها إلا باللجوء الصادق إلى الله، والتواضع التام للحقيقة، ثم الأخذ بالأسباب والتي من أهمها معرفة الحقّ بدليله، والنأي عن الباطل بعيداً بعيداً...

أقول: أقدم لك هذا الكتيب وقد ضمته خلاصة أهداف من ورائها إلى تعزيز اليقين بذكر أصولٍ يقوم عليها الإيمان بالله والتسليم لشرعه..

وقد بذلت فيه قصارى الجهد في التسهيل والاختصار، فما كان فيه من صوابٍ فالفضل لله وحده، وما كان من خطأٍ فمني والشيطان.

الغاية من الوجود

إن كل إنسانٍ ذي فطرة سليمة وعقلٍ صحيح، يعلم بأنه وُجِدَ في هذه الحياة لغايةٍ محدَّدةٍ؛ ذلك أنه من المستحيل^(١) أن يخلق الله الإنسان من عدم، ويهبه القدرة على فعل الخير والشر، ثم يدَّعه دون حسابٍ ولا جزاء! إذ إن عدم محاسبة الله للبشر على ما صدر منهم بمحض اختيارهم، مقتضى للتسوية بين الأخيار والأشرار، وهذا ظلم يتنزه الله عنه!^(٢) وإلى هذه الحقيقة - انتفاء العبيثية - أشار الله تعالى في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥-١١٦]. إذن، فالإنسان - كل إنسان! - إنما وُجد ليحاسب ويجازى، ولا معنى لمحاسبته إلا إذا كانت هناك

(١) هذا الكلام مع من يسلم بوجود الله تعالى وكمالهِ، وستأتي لاحقاً الإشارة إلى دلائل وجوده.

(٢) - يتفق الناس عربهم وعجمهم على أن التسوية بين المُجِدِّ في عمله أو دراسته والمهمِّل ظلم يتنزه العقلاء عنه، وهو مثال يبين عن جرم التسوية بين شيئين تجب الممايزة بينهما!

أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ يريدها الله منه، والله إنما يريد من الإنسان أن يقول ويفعل الخير، كما يريد منه أن ينتهي عن الشر.

والقرآن يطلق على هذه الأقوال والأفعال التي يريدها الله تعالى من البشر اسمَ العبادة^(١) كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وهي في حقيقتها الشرعية: «التقرب إلى الله تعالى بقول وفعل ما يريد منا قوله وفعله، وترك ما لا يريده» وبهذا التعريف نعلم أن مراداته الشرعية لا تنحصر في جانب من الحياة دون جانب، كما أن معرفتها على وجه الإجمال ممكنة للإنسان حين يستند على مجرد فطرته وعقله؛ فمما نستطيع معرفته بعقولنا:

الأول: ضرورة اعتقاد الحق، وقول الصدق؛ فلا ننسب إلى الله - وكذلك إلى غيره - باطلاً من الأسماء أو الصفات أو الأقوال أو الأفعال أو الإرادات.

(١) العبادة في الإسلام لا تقتصر على ما تمحضت فيه العلاقة بين الله وعبده كالصلاة مثلاً، وإنما تشمل علاقة الإنسان بنفسه وغيره من المخلوقات؛ فليس هناك فضاء من فضاءات الحياة تكون فيه جميع الأقوال والأفعال مباحة عند الله تعالى.

الثاني: ضرورة أن تكون أفعالنا عادلة، بمعنى أن نؤدي لكل ذي حَقٍّ حَقَّهُ.^(١)

الثالث: ضرورة شكر الله على كل نعمة أنعم بها علينا، وهذا من حقوقه علينا المندرجة في ما ذكر ثانياً، لكنه أفرد لأهميته. فالعقلاء يعلمون أن الشكر حَقٌّ من حقوق مَنْ يُحَسِّنُ إليهم، ويزداد وجوباً كلما ازداد المحسن إحساناً، ولا شك أن الله تعالى مصدر كل إحسان يصل إلى الإنسان، فيكون إذن هو الأولي بالشكر من كل أحد.

وإن من أعظم النعم الدنيوية التي أنعم الخالق بها على عباده = أن أمدهم بالعلم والقدرة على تحصيل بعض ما ينفعهم، ودفع بعض ما يضرهم.

الرابع: طلب المنافع من الله، واستدفاع الضرر بالاعتصام به، وذلك أن الإنسان ليس بمقدوره تحصيل جميع المنافع ودفع جميع المضار، وهذا يجعله بحاجة إلى من بيده جلب

(١) الناس جميعاً يتفقون على أن للإنسان حقوقاً، وهذا القدر يوجب على من علم أن له رباً كاملاً أن يعتقد بأن الرب يريد من الناس أداءها، لكنهم -أي: الناس- يختلفون فيمن يحدّد لهم هذه الحقوق، وأقوالهم منحصرة في إرجاع هذا التحديد إلى الخالق أو المخلوق!

كل نفع ودفع كل ضرر، وهو الله - سبحانه -، وحاجة المرء هذه إنما تحصل باسترضائه لربه وسيده، لا بالإدبار عن طاعته!

وهذا الأخير هو أيضًا من حقوق الخالق على خلقه لما فيها من الاعتراف بالحاجة إليه.

أهمية الوحي في بيان الغاية:

وأنت إذا نظرت في ما ذكر أعلاه تجد أن كثيرًا منها - بل كلها - أمورًا مجملة^(١) تتطلب تفصيلًا ليقوم الإنسان بها في يومه وليلته، فحين نقول: «الله تعالى يريد منك اعتقاد الحق، وقول الصدق» فإن هذا القدر مسلم به بين المؤمنين به جميعًا، لكنهم مختلفون في تحديد ما يدخل تحت لواء الحق وما لا يدخل، وكذلك حين نقول: «الله يريد منك أن تكون أفعالك عادلة، وذلك بأن تعطي كل ذي حقَّ حقه» فهنا نحن بحاجة إلى أن نعرف الحقوق الواجبة علينا معرفة يقينية، والناس في

(١) معنى كونها مجملة: أي أن الإنسان لا يعرف أفراد أوصاف الحق المتعلقة بالله تعالى، ولا يعرف أفراد الشكر وصور الافتقار التي يرتضيها الرب، بمعنى أنه لا يمكنه أن يجيب على سؤال: ما هي الصفات التي يتصف بها الخالق على وجه التحديد؟ وما هي الأقوال والأفعال التي إن قالها وفعلها حقق رضا مولاه.

تحديد تفاصيل ما يندرج تحت دائرة الحقوق مختلفون غاية الاختلاف!

والإنسان ليس بمقدوره التوصل إلى إدراك تفاصيلها بعقله، بل إننا لو فرضنا أنه قادرٌ على ذلك ثم خيّر العقلاء بين شخصٍ يفصل ما يجب عليهم بالاستناد على مجرد عقله، وآخر يفصلها بالاستناد على وحيٍ إلهي = لكان الثاني هو المقدم عندهم؛ لأنه كلام الأعم قطعاً، بالإضافة إلى أنه كلام مالك يوم الدين! ^(١)

(١) وكذلك لأنه إن كان العقل يدل على تلك التفاصيل، فإن الإنسان لا يؤمن عليه مخالفة الحق وادّعاء خلافه، وبالتالي فإن من يستشهد بالوحي هو في الحقيقة قد أتى بشاهدٍ على صدق كلامه، أيضاً إذا كان العقل دالاً واختلف الناس في مصالحهم فلن يخضعوا إلا لمن امتاز عنهم بشيءٍ إلهي؛ لأن خضوعهم هو قطعاً خضوع للإله الذي يتلقون أخباره وأمره ونهيه، ولا يخفى عليك أن المقصود بقدرة الإنسان على معرفة تلك التفاصيل بعقله = ليس كل إنسان بعينه، وإنما عقل بعضهم؛ إذ لا أحد عاقلٌ يدّعي بأن كل إنسان قادر بالفعل على بلوغ تلك التفاصيل. وإذا علمت هذا فإن كل من يطالب الناس بتشكيل قناعاتهم وسلوكياتهم على وفق ما يناديهم إليه، فقد نصّب نفسه في مقام النبي؛ إذ الكل إنما يدعو الناس إلى أتباعه، إلا أن النبي يدعوهم إلى ما مصدره الله، بينما يدعوهم الآخر إلى ما تلطّخ بهواه!

إمكان النبوة ووجود من ادَّعاهَا:

وهنا يثور في الذهن سؤال: إذا كان عقل الإنسان قاصراً عن تفصيل ما يتعلّق بالخالق، فهل الخالق أوحى إليهم ما يعلمون به التفاصيل المتعلقة به وبمراده؟

وفي الجواب على هذا السؤال أقول: إننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أنَّ هناك من البشر من ادَّعى نزول وحي إليه، والعقل لا يحكم بدءاً بنفي دعواهم؛ إذ إن الخالق الذي أوجد السماوات والأرض، وخلق الإنسان العليم البصير من ماء مهين، لا يعجزه أن يخصص أحداً من البشر بخطابٍ به يعلم تلك التفاصيل، ثم يأمره بإعلام بقية البشر.

يقول ابن تيمية: «جَعَلَ الإنسان أنبياءاً ليس بأعظم من جعل العلة إنساناً حياً عالماً ناطقاً سمياً بصيراً متكلماً قد علم أنواع المعارف»^(١)

وعدم علمنا بحكمة تخصيص إنسانٍ بذلك التعليم عبر وسيلة مخصوصة، لا يعني عدمها؛ لأن عدم العلم بالشئ ليس دليلاً على عدم ذلك الشئ كما هو مقرر في قواعد

الاستدلال العقلي! ^(١)

ونحن إذا أعدنا كَرَّةَ النظر إلى الواقع، وجدنا أن أعظم من ادَّعى نزول وحي إليه هو النبي محمد ﷺ، ^(٢) فهل نزل الوحي عليه حقاً؟

إن العلم بصدق ما ادَّعاه من عدمه هو من الأمور التي لا يمكن أن تلبس إلا على أجهل الجاهلين؛ وذلك لأن دعواه هذه أعظم من أن يدَّعي إنسان أنه رئيس الدولة الفلانية، أو أنه عالم من العلماء البارزين، أو أنه طبيب أو مهندس، والتفريق بين الصادق والكاذب في مثل هذه الدعاوى ميسور لعامة الناس فضلاً عن خواصهم من الأذكاء والعلماء!

مواقف الناس من النبي محمد ﷺ وما يجب بالعقل على كلٍّ؛

والناس بإزاء النبي ﷺ ينحصرون في ثلاثة أصناف لا رابع لهم:
الصنف الأول: المثبتون لنبوته ﷺ.
الصنف الثاني: النافون لنبوته.

(١) المكتشفات العلمية خير مثال لهذه القاعدة؛ فإنه لا أحد من العقلاء يقول: من لم يعلم وجودها حتى الآن يصح له نفيها!
(٢) وهذا باتفاق الموافق والمخالف، وتفصيله ليس هذا محله.

الصف الثالث: المتوقفون عن إثباتها أو نفيها.

وهنا أذكر لك عدة أمور يستبين بمجموعها الموقف العقلاني من النبي محمد ﷺ:

١ - العقل بمجرد أنه لا يثبت النبوة لأحدٍ ولا ينفيها عنه، إذ إن إثباتها أو نفيها يتطلب العلم بالواقع.

٢ - والعلم بالواقع إما أن يكون بالمشاهدة أو الخبر، بمعنى أن إثبات النبوة أو نفيها عن أحد ليس له طريق إلا الرؤية أو الخبر، وبعبارة أخرى: ما يُستدل به على صدق مدَّعي النبوة من كذبه إما أن تتعلق بها المشاهدة البصرية، وإما أن يُنقل بالخبر من قبل مَنْ شاهدها إلى من لم يشاهدها.

٣ - النافون اليوم لنبوة النبي محمد ﷺ لم يلتقوا به وكذلك المشتبون، وبالتالي فإن إثبات هؤلاء ونفي أولئك لا بد أن يستند على الخبر، والاستناد عليه يجب أن يكون وفق منهجية موضوعية، وإلا كان الإثبات أو النفي مبنياً على عبث لا يوصل إلى معرفة موضوعية!

٤ - التوقف بشأن النبي ﷺ - وهو عدم إثبات النبوة له أو نفيها عنه - ليس موقفاً عقلياً، وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول: كل العقلاء من كل الأمم يثبتون أمورًا لشخصيات في الماضي السحيق بمجرد الاستناد على الخبر، وهذه الشخصيات هي قطعًا أقل من النبي ﷺ أثرًا، وبعضهم أقدم زمنًا، فيكون هو إذن أولى بتناقل الناس لأخباره واشتهارها بينهم؛ إذ العادة أفادت أن المرء كلما كان تأثيره في الناس أوسع، وأثره أعمق، ازدادت دواعي أهل زمنه لنقل خبره إلى من بعدهم.

وإن أشهر ما ينسب إلى النبي ﷺ هو:

- أنه ادَّعى النبوة.

- وجاء بكتابٍ نسبته إلى الرب اسمه "القرآن".

- وأنه جرت على لسانه أخبارٌ وأوامر ونواهٍ تشكل

بمجموعها دينًا يسمّى الإسلام.

- وكذلك تواترت عنه أشياء أشد من تواتر كرم حاتي

الطائي، وظلم الحجاج، وفقه الشافعي، وثبات الإمام أحمد،

ووضع أرسطو علمًا في المنطق، وإتيان أفلاطون بمثله، إلى

آخره من الأمثلة التي يعتبر المشكك فيها أحمقًا!

والناظر فيما تواتر عنه ﷺ، يستطيع أن يصل إلى حكمٍ

يقيني حول نبوته.

السبب الثاني: أن ادّعاء النبوة يتضمّن أخبارًا وأوامر ونواهٍ، ومدعيها يزعم أنها من الخالق تعالى، ويزعم أيضًا أن ما كان منه موجهً إلى الناس، يجب تصديقه وامثاله وإلا تعرّضوا لأليم العذاب، وهذا يعني أن ما يأتي به مدّعي النبوة لا يقبل الحياد لا في ميزان عقلاء البشر، ولا في ميزان الحكمة الإلهية؛ إذ الموقف السليم بإزاء دعواه إما التصديق والانقياد إن كان صادقًا في دعوى النبوة، أو التكذيب والإعراض إن كان كاذبًا في ادّعاءها، ولا يمكن في حكمة الله ألا يميز بين هذا وهذا مع علمه بعظيم شأن النبوة، والموقف منها.

السبب الثالث: إذا كان الإنسان يؤمن بأن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثًا^(١)، وإنما خلقهم ليكلفهم بتكاليف يترتب عليها حساب وجزاء، وأنه لا حساب ولا جزاء إلا بعد علمهم بما كلفهم به = فإن التوقف عن إثبات النبوة للنبي محمد ﷺ أو نفيها عنه يكون في حقيقته طعنٌ في كمال الله تعالى؛ لأنه إن لم تكن ثمة أدلة صحيحة ترجّح صدقه أو كذبه - حاشاه -، فإن ذلك يعني أحد عدة أمور:

(١) أشرت في مفتاح الكلام إلى معنى كون الله تعالى خلق الخلق عبثًا.

الأول: أن الله تعالى سيحاسب الناس دون معرفتهم بحال أشهر وأعظم من ادعاها، وطالب الناس كلهم باتباعه، وهذا باطل؛ لأنه نقيض العدل الإلهي.

الثاني: الرحمة الإلهية توجب بيان حاله للناس بحجة يقينية لا مرية فيها؛ وذلك لأن عدم علمهم بحاله يوقعهم في الحيرة الشديدة، حيث إنه يلزمهم باتباعه، ويتوعد المعرضين عنه بالعذاب الأليم، وهم في ذات الوقت لا يعلمون صدقه إن كان صادقاً، ولا يعلمون كذبه إن كاذباً.

بل إن هذا الوجه يقتضي نسبة السفه للخالق - تعالى الله في عليائه - وذلك لأنه يسّر للناس طرقاً كثيرةً توصل إلى العلم بكذب المدّعي في دعاوى هي دون النبوة بكثير ^(١) ثم جعل العلم بكذب دعاوى النبوة خفياً على الناس، مع كونها أعظم من غيرها، والمفاسد المترتبة على الكذب فيها أكثر!

يقول ابن تيمية: «لا يبعث - الله - أنبياء صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم ويتوعد من كذبهم، فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك، وهو يسوي بين هؤلاء وهؤلاء في جميع ما يفرق به بين الصادق والكاذب. بل قد علمنا من سنته

(١) ذكرت قريباً أمثلة على ذلك.

أنه لا يُسَوِّي في دلائل الصدق والكذب بين المحدث الصادق والكاذب، والشاهد الصادق والكاذب، وبين الذي يعامل الناس بالصدق والكذب، وبين الذي يظهر الإسلام صادقاً، والذي يظهره نفاقاً وكذباً، بل يُمَيِّز هذا من هذا بالدلائل الكثيرة؛ كما يُمَيِّز بين العادل وبين الظالم، وبين الأمين وبين الخائن؛ فإنَّ هذا مقتضى سنَّته التي لا تتبدَّل، وحكمته التي هو منزَّه عن نقيضها، وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات، وتفريقه بين المختلفات.

فكيف يُسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقاً، وبين أكذب الناس وشرَّهم كذباً فيما يعود إلى فساد العالم في العقول، والأديان، والأبضاع، والأموال، والدنيا، والآخرة^(١)

دليل نقلي عقلي على أن الله لا يدع مدَّعي النبوة كذباً؛

وقد أشار القرآن الكريم أنَّ الله لا يترك مدَّعي النبوة كذباً دون بيان كذبه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]^(٢) أي: أن مدَّعي النبوة لو كان كاذباً لكشفَ الله تعالى ذلك.

(١) النبوات ١ / ٥٢٦

(٢) من الممكن أن يستدل بهذه الآية على نبوة النبي ﷺ، وبيان وجه الدلالة ليس هذا محله.

وهذا من أقوى الأدلة؛ إذ لو جاءك رجلٌ وادَّعى أنه مرسل من الملك لتعطيه عشرة آلاف ريال سدادٍ لمستحق حكومي، ثم توعَّدك بالعقاب إن أنت تخلفْت عن السداد، فحين طلبته ما يثبت دعواه قال: «الملك يعلم أنني الآن واقف بين يديك، ولو كنتُ كاذبًا لأرسل إليَّ جنودًا ليكذبوني ويعاقبونني على انتحال الشخصية» وبقي دون أن يقبض عليه أحدٌ مع جزمك بعلم الملك به، وإحاطة قوته بالبلد، ورحمته وعدله.

هنا لا يستريب عاقل بأنه صادق في دعواه؛ إذ لو لم يكن كذلك لصح أن يطعن في قدرة الملك أو علمه أو رحمته وعدله وإرادته الخير لك؛ إذ يعلم أنه تسلَّط عليك باسمه، ثم لم يكذِّبه بقولٍ أو فعلٍ!^(١)

وهذه الأمور متتفية عن الله تعالى، فالله الملك: قدير، عليم، رحيم، عادل.. ومن هذه صفته لا يدع من يضل الناس باسمه.

(١) الحجة فرعٌ عن ثبوت الكمالات لله تعالى واستحالة النقائص عليه. للاستدلال على نبوة النبي ﷺ من خلال هذا الطريق أوجه مختلفة ليس هذا مقام تفصيلها.

وخلصة القول:

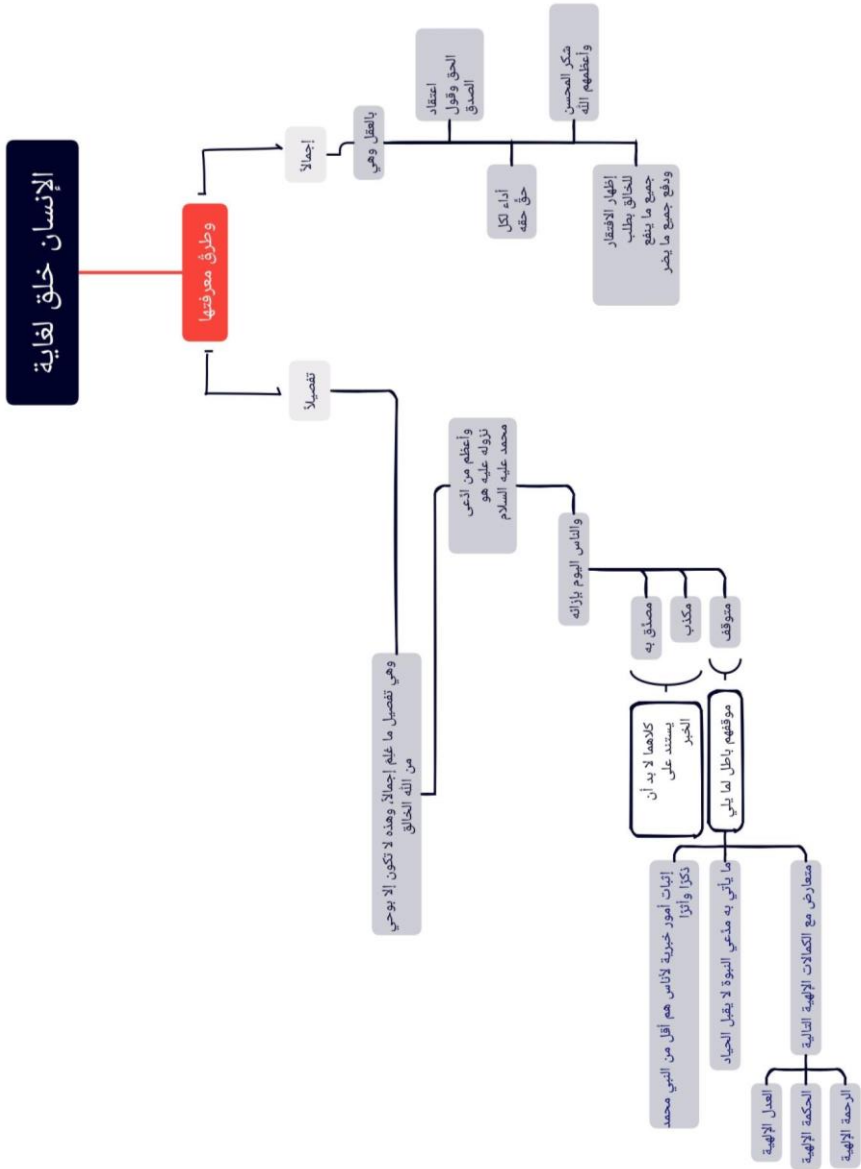
إن حال الناس بإزاء مدَّعي النبوة ينحصر في ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: علمهم بأدلة بينة تفيدُ صدقه.

الحالة الثانية: علمهم بأدلة يقينية في ثبوتها ودالاتها على كذبه.

الحالة الثالثة: عدم علمهم لا بهذه ولا بهذه، وهم في هذه الحالة إما متجاهلون معرضون عن النظر في الأدلة، وهؤلاء بدر منهم تفريط لا يُعذرون به، وهم كمن أغلق على نفسه باب الغرفة وأسدل ستارها على النافذة ليقول بعدها: لا يمكنني أن أعلم بعد الآن هل الوقت ليل أم نهار!

وإما جاهلون، وهؤلاء لا عبرة بما يقولونه؛ والواجب عليهم سؤال غيرهم.



المضمون العام للقرآن الكريم:

إذا نظرنا في القرآن وجدنا أن مضمونه مكون من مكونين
اثنين:-

المكون الأول: أخبار يُراد من إيرادها تصديقها، وأكثرها
عن الله تعالى، وعن الملائكة، وعن الرسل وأقوامهم، وعن
القرآن نفسه وبقية الكتب، وعن الموت وما بعده من بعث
وحساب وجزاء، وأكثر هذه أمور غيبية تدخل في صميم
الاهتمام الإنساني، وسيأتي الكلام عن الغيب إن شاء الله.

المكون الثاني: أوامر ونواهٍ، الأمر فيها والناهي هو الله
تعالى.

وهناك موضوعات مهمة داخلية في المكون الأول، منها
الإنسان، والكون، والحياة فما هو الإنسان؟ وما هو الكون؟
وما هي الحياة؟ وفق الخطاب القرآن.



الإنسان في القرآن

الإنسان مخلوق لله تعالى:

- لم يكن مقصد إنزال القرآن إثبات هذه الحقيقة؛ إذ الإنسان في الأصل مفطور على العلم بها، كما أن النظر العقلي مُوصِلٌ إليها، وما ورد في القرآن عنها إنما هي إشارات يُراد بها إثبات ما يلزم عنها من عبادة الله وحده والإيمان باليوم الآخر، ومن تلك الإشارات قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٦] وهذا دليل عقلي ظاهر؛ إذ إن الإنسان قد وُجد بعد عدم:

- فهل وُجد من دون سبب؟ وهذا باطل؛ لأنه كان معدومًا، والمعدوم يبقى معدومًا ما لم يوجد سبب. وإذا كان وجوده من غير سبب باطلاً، فهل السبب الإنسان نفسه؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا أيضًا باطل؛ لأن الخلق فعل لا بد أن يقوم بفاعل، والفاعل في هذه الحالة غير موجود! فبقي إذن أن يكون للإنسان سبب مستقل عنه.

وهذا السبب يجب ألا يكون لوجوده بداية؛ إذ لو كان كذلك لكان أيضًا مفتقرًا إلى من يوجده، فيكون كل سبب مفتقرًا إلى سبب، ولأن كل سبب مفتقر إلى سبب قبله، وهذا السبب ليس بوجوده، فلن يكون هناك شيء موجود أصلاً!

وبما أن الإنسان - وغيره مما يشاركه الحدوث - موجود فلا بد إذن من أن يكون له سبب ليس لوجوده بداية، وهو الخالق تعالى؛ ولهذا أشارت الآية: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]..

وأيضًا من الأدلة المذكورة في القرآن على أن الله خالق الإنسان قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ۖ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٧٧﴾ [يس: ٧٧].

تشير هذه سؤالاً في ذهن من سَمِعَ وتعقل: كيف أن النطفة - التي لا ترى بالعين المجردة - تنقلب في غضون مدة قليلة إلى إنسان من شأنه أن يسمع ويبصر، ويتفكر ويتأمل، ويعقل

ويتكلم، ويصنع ويعمل... وكل ذلك يحصل دون تدخلٍ أحدٍ من البشر؟!!

وكذلك من الأدلة القرآنية على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] وهذا من أعظم الأدلة؛ إذ العقل يعلم أنَّ الإنسان كان بالإمكان أن يكون على صورة وهيئة مختلفة، فيطلب حينئذٍ تفسيرًا لاختيار صورته وهيئته الحالية من بين مئات غيرها، ولن يجد إلا تفسيرًا واحدًا، ألا وهو الاعتراف بسبب قدير، أراد - لاحظ قولي أراد - الصورة والهيئة التي عليها الإنسان الآن من بين جميع ما يُقدَّر من الصور والهيئات!

ومما جاء في القرآن أيضًا للتنبيه على كون الله تعالى خالق الإنسان قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلٍ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧] وفيها أنَّ «الإنسان إذا فكر في نفسه رآها مدبرة، وعلى أحوالٍ شتى مصرفة، كان نطفةً، ثم علقه، ثم

مضغعة، ثم عظاماً، ولحمًا، فيعلم أنه لا ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال؛ لأنه لا يقدر أن يُحدث في الحال الأفضل، التي هي حال كمال عقله، وبلوغ أشده عضواً من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد من جوارحه جارحة، فيدله ذلك على أنه في وقت نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز، وقد يرى نفسه شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم، ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه، وأن له صانعاً صنعه، وناقلاً نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر^(١)

الإنسان مكرم ومفضل على غيره من المخلوقات:

ورد في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] حقيقة أن

(١) - بيان تلبس الجهمية لابن تيمية ١ / ٥٠٢

الإنسان مكرمٌ لا يمكن أن تقرّر إلا في ظل الإيمان بالخالق؛ إذ بدون الإيمان به يكون الإنسان مجرد شيء وُجد عبثاً، لا قيمة حقيقية له، ولا معنى لوجوده^(١) وبالتالي فهو شيء كباقي الأشياء الأخرى من جمادات وحيوانات، وحينئذٍ فهو لا يستحق -في ظل هذا التصور- تعاملاً يختلف عن تعاملنا معها إذا ما تعارض وجوده مع مصالحنا!

وإذا كان تكريمه على الحيوانات والنباتات والجمادات موقوفٌ على تكريم الخالق، فإن للخالق أن يسلبه كرامته إن عصى أمره، فيكون حينئذٍ حلال الدم والمال.

وهذا فرع عن كون الله هو الملك المالك؛ إذ إن من هذه صفته له كامل التصرف فيما يملك، ولكنه بالنسبة لله لن يخرج تصرفه عن حدود العدل؛ إذ إن العدل صفة ذاتية لله تبارك وتعالى.

(١)- هذا على فرض أنه وُجد أصلاً!

الإنسان سيحاسب على أقواله وأفعاله؛

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وهذا هو الذي يقتضيه العدل الإلهي؛ إذ التسوية بين الأخيار والأشرار ظلمٌ يتنزه الخالق عنه، وقد أشار الله لهذا في سورة القلم: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۚ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦].

إذن فالإنسان مخلوق كَرَّمَهُ اللهُ تعالى وسيحاسبه على أقواله وأفعاله.



الكون في القرآن؛

الكون هو مجموع هذا العالم من سماء وأرض وكواكب ومجرات ...، والقرآن أخبر بأن كل ذلك مخلوق لله تعالى، ودليل وبرهان على علمه وحكمته وقدرته، وسأشير إلى بعض ما ذُكر عنه:-

الكون آية من آيات الله تعالى؛

إن من يستقرئ نصوص القرآن يجد فيه حثًا ظاهرًا على التفكير في أرجاء الكون ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] ﴿[سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١] . وإلى غير ذلك مما هو مبثوث بين دفتي كتاب الله.

والعاقل إذا نظر وتفكَّر، علم أنَّ وراء هذه الموجودات خالق خلقها لحكمة، أمَّا من عطلَّ عقله مكتفياً بحسِّه، فإنه لن يتجاوز بعلمه ظاهر الحياة الدنيا ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٧] والاكتفاء بالظاهر إجماع للعقل بلجام الشهوة والاستكبار، ولو تُرك وشأنه لكانت طبيعته الفاحصة عن الآثار تتوق لما وراء الأثر، ف«البحث فيما وراء الآثار والأفعال والأحداث عن المؤثرين والفاعلين والمُحدثين لا يُمكن أن يتخلَّى عنه البشر -مطلقاً- إلا في حالة فقدانهم عقولهم، إذ لا يمكن للبشر أن يتصوروا حدوث الأشياء بعد عدمها دون وجود أسبابٍ لذلك تناسب طبيعة تلك الحوادث.

وكلما كان الأمر الحادث الناشئ أكثر إتقاناً وتعقيداً اشتدت الضرورة في النفس للبحث عمَّا وراء ذلك الأمر المُحدث المتقن من السبب الذي يناسب هذا الإتقان والتعقيد، فإن العقل لا يقنع - عند النظر في الأمور الحادثة - بمجرد وجود سببٍ وراءها، بل لا بد أن يكون السبب مناسباً للصفة التي نشأ عليها هذا الأمر الحادث».

الكون عظيم:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾
 [سورة غافر: ٥٧] يشير القرآن إلى أن خلق السماوات والأرض
 وما بينهما أعظم من خلق الإنسان، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ
 بَنَاهَا ۖ﴾ [سورة النازعات: ٢٧] وهذا يدعو - مما يدعو إليه -
 إلى تعظيم الخالق وتبجيله.

الكون مسخر للإنسان:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ
 لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمْ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ﴾
 [إبراهيم: ٢٣-٣٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
 مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وتسخير الكون للإنسان سببه ما امتاز به عن سائر
 المخلوقات، وأعني بما امتاز به: العقل، والقدرة على فعل
 الخير والشر، وما يترتب عليهما من التكليف والثواب

والعقاب؛ فتفاضل المخلوقات عند الله ليس بالأحجام، وإنما
بالغايات التي تنتهي إليها^(١)

(١) - نحن - المسلمون - نقول بأن الله تعالى قادر على كل شيء؛ لا
يكون عليه شيء أصعب من آخر أو أهون، فهو يخلق السماء بـ«كن»
ويخلق الإنسان بـ«كن»، هذا الواقع، لكن عقل الإنسان يقايس هذا
بتلك فيحكم بأن أحدهما أهون على الفاعل من الآخر، ولذلك خاطبه
الله تعالى بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ
الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه
الحقيقة الأولى: الله قادر وقوي.

والحقيقة الثانية: الله غني واسع الملك؛ فكل مخلوقاته العلوية
والسفلية لا تساوي شيئاً بجانب سعة ملكه.

إذن، من الجهل أن تكون سعة الكون، وكثرة الكواكب شبهة تتطلب
جواباً؛ لأن من يثيرها فهو في الحقيقة يمثل الخالق بالإنسان ذي الملك
المحدود، والذي فعله لبعض الأشياء أشق عليه من بعض، إذ الأجدر
بالنسبة لهذا الإنسان هو ترك الهدر (لأن غناه غير مطلق، وملكه
محدود) والبعد عن إرهاق النفس (لأن قدرته وقوته محدودة)، وحينئذٍ
نظن أن إيجاد الله لكونٍ شاسع وخلقٍ واسع واقعٌ على خلاف الأولى
والأجدر، وهذا الظنُّ - كما ترى - فرعٌ عن تمثيل القوي القادر الغني
بالضعيف العاجز المحتاج - تعالى الله علواً كبيراً -

الحياة في القرآن

وجد الإنسان نفسه مدفوعاً إلى هذه الحياة بغير اختيار منه، ومن المنطقي جداً أن يسأل نفسه عن سبب وجوده ومآله، ألا ترى أن المعقول في حق من وجد نفسه في طائفة محلقة في السماء، أن يسأل عن غاية وجوده داخلها، وإلى أين هو ذاهب، وأنه لو انشغل عن جواب هذين السؤالين بديكور الطائرة، وأجزائها الداخلية، وبوسائل الترفيه لكان باتفاق العقلاء مخالفاً لما ينبغي، كذلك هو الحال فيمن وجد نفسه في هذه الحياة فانشغل بظاهاها، وغفل عما وراءها!

والإنسان فطر على السؤال عن غاية وجوده وقيمة معناه، وقد جاء القرآن باستشارة هذه الفطرة والإجابة عليها، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)، [المؤمنون: ١١٥] ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الحياة الدنيا اختبار:

وهذا من أظهر ما يكون في القرآن الكريم ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ومعنى الاختبار أي: أن الإنسان مكلف من ربه، وهو بين أن يطيع أو يعصي، وهذا أمر معقول إذا استحضرنا اتصاف الإنسان بالقدرة على الخير والشر، والطاعة والمعصية.

الحياة الدنيا دار زرع:

ومعنى هذا أن الإنسان وُجد في هذه الحياة ليعمر حياته اللاحقة - حياة الحساب والجزاء - بالعمل الصالح، ولذلك يذكر الله في القرآن أن المفرط حين يقدم على ربه يقول: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] أي حياته الحقيقية وهي الحياة الباقية أبدًا.

ولتتصور ندمه يوم القيامة قلبٌ بصرك وأرخ سمعك لمن تقدّم بهم العمر في هذه الحياة وهم في حالٍ بائس جرّاء تفریطهم، ستجدهم بعد نضج عقولهم نادمين على كل لحظةٍ

لم يستثمروها في بناء مستقبلٍ بهيج!
إن هذا حال من فرَّط بالمطالب الفانية، فكيف هو حال من
فرَّط باللذائذ الباقية؟! ^(١)

نتيجة ما سبق

إذا كان الإنسان مخلوقاً لله تعالى، مكرِّماً بتكريم الله له،
محاسباً على أفعاله، وله الكونُ بعظمته مُسَخَّرٌ بتسخير ربِّه،
وهو في هذه الحياة للاختبار، إما رابحٌ وإما خاسر، فالسؤال
إذن:

(١) يصفُ بعضُ الجهلة الوعاظُ بأنهم «أعداء الحياة» فهل هذا الوصف
صحيح؟ لنرى!

إن كان القائل مؤمناً بالجنة والنار فكلامه هذا جهالة منه؛ لأن العبرة فيما
يحقق نجاة المرء في دار البقاء، وعليه فيكون هذا الجاهل أحق بالوصف
منهم؛ وذلك لأنهم - أي الوعاظ - يدعون الناس إلى ما يسعدهم أبداً،
بينما هذا الجاهل يصدُّهم عن حياة لا يتخللها عكْرٌ ولا يعقبها شقاء،
تلك الحياة التي لا تساوي الدنيا بأكملها جزءاً منها!

أمّا إن كان القائل بهذا لا يؤمن بالحياة الأخروية فإن النقاش معه يكون
في إثبات الحياة بعد الموت؛ لأن الواعظ إنما انطلق من ثبوتها، بينما هذا
انطلق من عدمها، وحكم الأصل مُنَجَّرٌ على لازمه!

من الذي يحدد ما علينا فعله، الله أم الإنسان؟

اعلم - أيها الغالي - أنَّ نيل الإنسان للفلاح الأخروي منوطٌ بخيريته، أي أنه لن ينال فلاح أخره ما لم يكن خيرًا، ولكي يكون كذلك لا بد أن تتضمَّن أقواله وأفعاله حدًّا أدنى من الخيرية، فمن ذا الذي يحدِّد تلك الأقوال والأفعال^(١) التي بها يكون المرء من جملة الأخيار؟

المحدِّد لها إما أن يكون الخالق وإما أن يكون المخلوق، والثاني باطل لعدة أسباب، أهمها:

الأول: لا شك أن الرجوع في هذا إلى الخالق رجوعٌ إلى من بيده الثواب والعقاب، والرجوع إلى من هذه صفته خير من الرجوع إلى من هو دونه، فقيام شخصين كل منهما يدَّعي أن لديه ما يحصِّل به الناس منافع الدنيا والآخرة، وأحدهما يدَّعي استناده فيما يدعو الناس إليه على وحي إلهي، والآخر ينطلق

(١) علمت أن الأقوال والأفعال التي يتحقق بها فلاح الإنسان في أخره هي التي يريد الله متًّا قولها وفعلها، أو بلفظ جامع: هي العبادة، والعبادة لفظ عام يشمل ما تمحضت فيه العلاقة بين العبد وربّه، وكذلك يشمل هذا اللفظ ما كان في نطاق تعامل الإنسان مع باقي المخلوقات.

من ذات نفسه = فلا شك أن التفات العاقل إلى الأول أولى من التفاته إلى الثاني؛ وذلك لأن الأول إن ثبت صدقه فلن تكون محتاجاً للنظر في كلام غيره، كما أن وقع الخطاب الرباني على القلب أكثر تأثيراً من كلام البشر من جهاتٍ متعددة.

الثاني: السبب السابق كان يتضمن تسليماً بقدرة بعض البشر – لا كل^(١) – على الوصول إلى تفاصيل الحق والخير دون الحاجة إلى وحي سماوي، أما هذا السبب فهو يقرر حاجة الإنسان إلى الوحي من خلال عدة وجوه:-

الوجه الأول: الإنسان قاصر عن إدراك جميع الأقوال والأفعال المَرْضِيَّة لمديره في العمل أو أستاذه دون استنادٍ على أقواله هو أو أقوال من عرفوه. وهذا كما ترى حال البشر مع من يماثلهم في الحقيقة، فكيف هو حالهم مع من ليس كمثله شيء؟

الوجه الثاني: الإنسان لا ينشأ بعيداً عن أمثاله من البشر الذين يكبرونه عمراً، وبالتالي فهو حتماً يتشرب ما يغرسونه فيه منذ نعومة أظفاره، فيتشكّل له إلفها في كبره، ويظنها حينئذٍ

(١) وهذا القول لا يقول به من عنده مسحة عقل!

حقًا دون ما سواها، وهكذا الإنسان في كل أسرة ومجتمع، يتلقَّى عنهم ما يرتضونه هم، فيظن عندئذٍ أن كثيرًا من أحكامه المتلقية عمن سبقوه في الحياة = حجةٌ صحيحةٌ على استنتاجاته، بينما هي في الواقع ليست كذلك.

وهذه الحقيقة تجعله لكي يصل إلى المطالب التفصيلية المتعلقة بالله = محتاجًا - قبل بناء أي قولٍ متعلِّقٍ بتلك المطالب - إلى تحليل منظومته الفكرية ليصح له بعد ذلك البناء، وسيجد حينئذٍ أنَّ رأس ماله من الحق لا يجاوز المحسوسات، والضروريات العقلية، وما ابتنى عليهما فقط. وكل هذا ضئيل جدًا مقارنةً بما يحتاج إليه من المعارف الدينية والأخلاقية، فيقف حينئذٍ على افتقاره إلى مصدرٍ آخر يسد حاجته.^(١)



(١) هناك أوجه أعرضت عن ذكرها لعدم احتمال المقام لها.

أصول يقوم عليها التسليم لله ورسوله ﷺ

أحسب أنك الآن تقر بتهافت الرجوع إلى الإنسان في تحديد تفاصيل الأقوال والأفعال التي يكون بها المرء خيراً عند الله، وهذا يقتضي منك تطلُّب الوحي الإلهي. وقد أشرت لك سابقاً إلى أن إتيان الوحي عن طريق رجل من البشر أمرٌ يحكم العقل بجوازه، كما أشرت إلى أن أعظم من ادَّعى نزول الوحي عليه هو النبي محمد ﷺ، ثم أعقبته بالماحة حول المنهج الصحيح الذي يجب أن يسلكه الناس لنسبة شيء إليه أو نفيه، كما ألمحت إلى أن مضمون الوحي الذي جاء به منحصرٌ في أخبار، وأوامر، ونواهٍ. وهي كلها قائمة على أصولٍ كثيرة، منها:

الدين الحق - المتضمن لهذه الأخبار والأوامر - علم:

إذا كان الدين الحق عبارة عن مجموعة أخبار يتكلم الله فيها عن نفسه، وعن مخلوقاته، وأوامر ونواهٍ منه سبحانه = فإن هذا يعني أن الدين علم؛ إذ العلم هو مجموعة حقائق مصنفة حول موضوع محدد. والدين الحق إنما هو مجموعة حقائق عن الله تعالى - وهو أعظم الموضوعات على الإطلاق -،

ومرادُه من خلقه، وكذلك ما سيفعله بأوليائه وأعدائه.

وإن من التناقض الفج أن يفرِّق بينه وبين العلوم الطبيعية -مثلاً-، فيشترط لها التخصص والسير وفق قوانينها، ثم ينفي هذا الشرط عن الدِّين!

ومعلومٌ أن الدِّين الحق -الذي هو كما قلت علم- وبقية العلوم تدور في فلك موضوعات لها وجود مستقل عن أذهان البشر، والمرء لا يولد عارفاً بها، ولا يتنزل عليه العلم بها من السماء، وإنما يصل إلى معرفتها عبر الطرق المعتمدة، وهي الموصلة إلى حقائقها!

وكون الإنسان يتدين بالدين لا يعني أن له الحق في أن يتكلم فيه كيفما شاء، كما أن الذي يسلك برنامجاً غذائياً لا يحق له الكلام في علم التغذية مثلاً بلا تعلُّم وأخذ عن أهل الاختصاص.

والقرآن الكريم يؤكد في غير آية أن ما أنزل على النبي محمد ﷺ علم، فمن ذلك قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة آل عمران: ٦١].

لَدِينِ الْإِسْلَامِ عُلَمَاءُ :

إِذَا عَلِمَ أَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ يَدْخُلُ فِي مَسْمُوعِ الْعِلْمِ، فَقَدْ وَجِبَ أَنْ يَصْنَفَ النَّاسَ إِلَى عُلَمَاءَ هُمْ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَعَوَامٌ يَجْهَلُونَ تَفَاصِيلَهُ.

وَامْتِيَازُ الْعُلَمَاءِ عَنْ سِوَاهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِإِدْرَاكِهِمْ لِأَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَالطَّرِيقِ الْمَعْتَبَرَةِ لِتَعَلُّمِهِمَا، ثُمَّ السَّيْرِ وَفَقْهَهَا. وَالْعِلْمُ بِهَذَا كُلِّهِ لَيْسَ حَكْرًا عَلَيْهِمْ؛ فَلَمَنْ شَاءَ أَنْ يَلْحَقَ بِرَكْبِهِمْ، وَلَكِنْ لَنْ يَدْخُلَ فِي مَسَمَّاهُمْ مَنْ لَمْ يَسْلُكِ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَةَ لِرَفْعِ الْجَهْلِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ عَنْ نَفْسِهِ.

وَإِنِّي أَشِيرُ هُنَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ إِذْ لَمْ يَكْلِفْ جَمِيعَ الْبَشَرِ حِفْظَ كَلَامِهِ، وَاسْتِنْبَاطَ أَحْكَامِهِ، بَلْ فَرَضَ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ يَقُومَ مِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ لَهَا دِينَهَا الَّذِي ارْتَضَاهُ، وَيَتَوَلَّى تَبْلِيغَهُ وَرَدُّ الْبَاطِلِ عَنْهُ، فَإِذَا قَامَ مِنْهُمْ مَنْ يَكْفِي سَقَطَ الْإِثْمُ عَنِ الْبَاقِي.

لِلتَّفَكِيرِ حُدُودٌ :

إِنَّ التَّفَكِيرَ عَمَلِيَّةٌ مِنْ عَمَلِيَّاتِ الْعَقْلِ، وَالْعَقْلُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُقَ أَدَاةً فِي الْإِنْسَانِ يَلْكَزُ عَنْهَا لِذَاتِهَا

ما يخالف كلامه، بل لو فرض التعارض لكان الأجدر بالتقديم كلامه؛ لكونه صادرًا عن خالق، وما يصدر عنه من أحكام أولى بأوصاف الكمال من الأحكام الصادرة عن المخلوق.

ومخلوقية العقل تقتضي أنه إنما خُلِقَ لحكمة أرادها الله تعالى، وهي أن يتعرف الإنسان بواسطته على هذا الوجود، ويحصل له الغلط إذا استعمل العقل في غير نطاقه، أو استند على أوهامٍ نُسبت إليه - أي إلى العقل - بالجهل أو البهتان، وللعقل حدود تتلخَّص في اثنين:-

الأول: الأثر الذي به يستدل العقل على وجود المؤثر، فالموجود الذي ليس له أثر يدركه الإنسان بحواسّه لا يمكن للإنسان العلم بوجوده عبر العقل فضلاً عن الحواس، فمن أين لعاقل أن يجزم بأن لكل شيءٍ غيبي أثر في عالم الشهادة، ليحكم بعدها بأن ما لا أثر له لا وجود له البتة؟! وبداهة هذه الحقيقة تغني عن التفصيل في بيانها.

الثاني: حقائق الأشياء في ذاتها لا يمكن للعقل أن يدركها ما لم يباشرها بالحواس، وإذا كانت حواسُّ الإنسان قاصرة جزماً عن التماس مع كل موجود، ونحن نعلم أن ما غاب عنها

-أي: الحواس - ليس بالضرورة مماثلاً لما أدركنا حقيقته من الموجودات = فإن ذلك يعني قصور العقل عن إدراك حقائق كثيرٍ من الموجودات.

فتلخص من هاتين الحقيقتين أن الموجود الذي ليس له أثر، أو الموجود الذي لا يماثل في حقيقته ما رأيناها، لا يمكن للعقل التحوُّص فيه إلا بالظن والتخُّص!

فعلم أن المنهي عنه في الشرع ليس التفكير من حيث هو عملية عقلية، وإنما من حيث الموضوع الذي تعلَّق به، فما كان موضوعه غيباً لا أثر له أو غير مماثل لما علمنا حقيقته، كان إعمال الذهن فيه محرماً في الشرع؛ وذلك لكونه حكماً على الأشياء بغير علم، واشتغال فيما لا جدوى من الاشتغال به، وانشغال عن الحق بالباطل.

للوحي معنى محدّد مفهوم:

علمت فيما سبق أن الإنسان مفتقر إلى وحي إلهي يتضمن علومًا وأعمالاً ينبغي عليه تصديقها وامثالها، ولا يمكن أن يكون الوحي هلامياً لا يُرشد إلى معرفة، بل لا بد أن يكون ذا معنى مدركٍ للإنسان وإلا لم تحصل به الهداية.

والأصول التي تقوم عليها هذه الحقيقة كثيرة، من أهمها:-
 الأصل الأول: الله تعالى أعلم بنفسه، وبمراده، وبخلقه. (١)
 الأصل الثاني: الله تعالى أنزل وحيه هدايةً للناس إلى معرفته
 سبحانه وتعالى ومعرفة مراده، ولن يكون الوحي محققاً لهذه
 الغاية إلا إذا كان بيناً واضحاً.
 الأصل الثالث: الله تعالى على كل شيء قدير، وهذا مسلتزم
 لأن يكون كلامه بيناً واضحاً؛ إذ القاعدة العقلية تقول: الإرادة
 الجازمة-وهي المذكورة في الأصل السابق- مع القدرة
 التامة-وهي المذكورة في هذا الأصل- تستلزم وجود المراد
 وهي هنا كون الوحي أعظم طرق الهداية وأوضحها. (٢)
 والنبى ﷺ أعلم الناس بربه وأنصحهم وأفصحهم.
 وثبتت هذه الأصول في خطاب الله تعالى ورسوله ﷺ،

(١) إني لأستحي من اللجوء إلى ذكر هذه الحقيقة وأمثالها من الحقائق
 الظاهرة، وأجعلها مقدمة إلى النتيجة، لكن ما عساي أن أقول، وقد قال
 من أحاط علمه بالإنسان ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾!
 (٢) لا يحق لأحد أن يعترض بوجود آيات مشابهات؛ فالمتشابه إذا ردَّ
 إلى المحكم لم يكن في مدلوله باطل! وسيأتي بيان شيء من حكمة
 ورودها.

يُوجِبُ عَلَيْنَا ^(١) أَنْ نَتَلَقَّى خُطَابَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالتَّعْظِيمِ الْمَطْلُوقِ، وَمِنَ التَّعْظِيمِ أَنْ نَتَلَبَّ فُهُمَهُمَا كَمَا أَرَادَا أَنْ نَفْهَمَهُمَا؛ بِمَعْنَى أَنَّنَا لَا نَخْتَرِعُ مَعَانٍ بَاطِلَةً، ثُمَّ نَزْعِمُ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَرَادَا بِكَلَامِهِمَا تِلْكَ الْمَعَانِي؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ كَلَامَهُمَا أَوْضَحَ الْكَلَامِ وَأَبْيَنَهُ، وَمَنْ كَانَ كَلَامُهُ كَذَلِكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَرِيدَ خِلَافَ الْمَتَبَادَرِ إِلَى ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ بِلُغَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُ أَلْفَاظَهَا وَطَرَائِقَ التَّعْبِيرِ بِهَا.

وَأُولَى النَّاسِ بِفَهْمِ الْوَحْيِ هُمُ الَّذِينَ جَاءَ الْوَحْيُ بِلِسَانِهِمْ، وَتَلَقَّوْهُ مَبَاشَرَةً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَإِنَّكَ لَتَعْجَبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِمَّنْ إِذَا طَالَبْتَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى هَؤُلَاءِ أَتَهْمُكَ بِالرَّجْعِيَّةِ؟ وَمَكْمَنُ الْعَجَبِ أَنْ تَقْبِيحَهُ هَذَا يَحْمِلُ

(١) اعلم - عَلَّمَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ الْمَرْءَ إِنْ لَمْ يَجْعَلْ مَعْيَارَهُ فِي تَفَاصِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَهِيًّا = كَانَ حَتْمًا بَشَرِيًّا، وَإِذَا كَانَ الْمَعْيَارُ بَشَرِيًّا لَمْ يَرْتَفِعْ الْخِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ أَبَدًا؛ وَذَلِكَ لِاحْتِمَالِ الْخَطَأِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَالْمَعْلُومُ أَنَّ الْمَعْيَارَ إِذَا احْتُمِلَ عَلَيْهِ الْخَطَأُ لَمْ تَصَحَّ الْمَعَايِيرُ بِهِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ: لَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ نَاتِجَ مَسْأَلَةٍ حِسَابِيَّةٍ فَاسْتَخْدَمْتَ «آلَةَ حَاسِبَةٍ» فَإِنَّكَ لَنْ تَطْمَئِنَّ إِلَى نَتَائِجِهَا، وَلَنْ تَتَّقَ بِهَا إِلَّا إِذَا ضَمَنْتَ صِحَّةَ كُلِّ نَتَائِجِهَا!

في طياته عددًا من الأغلاط لا غلطًا واحدًا، ومن تلك الأغلاط:
الغلط الأول: أن هذا القائل لم يفهم بعدُ حقيقة الدِّين؛
فالدِّين في حقيقته حزمة من الأخبار المتعلقة بالخالق
(كأسمائه، وصفاته، وبعض أفعاله الماضية، والحاضرة،
واللاحقة)، وحزمة من الأحكام العملية التي ترسم للإنسان
الطريق الذي به يكون في أقواله وأفعاله موافقًا لمراد ربِّه، ومن
هنا أقول: هل ما يريد الخالق منا اعتقاده وقوله وفعله يتغير مع
تقادم الزمان؟! فليأتني هذا وأمثاله بوحى جديد ينسخ ما نزل
على النبي محمد ﷺ وسأتنازل عن محاكمتهم إليه!

الغلط الثاني: أن يكون القول أو العمل قديمًا لا يعني أنه
باطل؛ ولو كان الزمان حكمًا لكانت الأقوال والأفعال التي
ينادوننا إليها اليوم باطلة عند من سيأتون بعدنا. هذا على فرض
التسليم بصحتها!

والحكم على قولٍ أو فعل بالخطأ لأنه قديم، يوقع صاحبه في
«مغالطة الجِدَّة» التي «تفترض أن جِدَّة الفكرة دليلٌ على
صدقها. وصورة المغالطة:

(س) جديد

إذن (س) صحيح أو أفضل»

والعقل يعلم أنَّه لا تلازم بين حداثة المقولة والصحة، فكم من فكرة كانت جديدة في عصر ما، وهي اليوم من أبطل الأفكار باعتراف كثير ممن كانوا ينادون بها!

الغلط الثالث: أنَّ هذا الشخص في حقيقته يدعوك إلى فهم بشرٍ للنص في مقابل فهم بشرٍ آخرين -الصحابة والتابعين- وهنا يأتي سؤال: إن كنت بين فهمين للبشر فالحق والصواب أن أنظر فيمن هو أجدر بالفهم الصحيح للنص من غيره فأقدم فهمه.

ولا يشك عاقل أن أولى الناس بفهم القرآن هو النبي ﷺ، ثم من عايشوا التنزيل، وعاصروا النبي ﷺ وأخذوا عنه، وذلك لاعتبارات متعلقة بواقعهم، وكذلك لاعتبارات متعلقة بهم، خلاصتها فيما يلي:

أولاً: الله -عز وجل- كما اصطفى رسوله محمد ﷺ من البشر، فقد اقتضت حكمته أن يصطفى لخير البشر خير الناس صحابة له، ومبلغين عنه.

ثانياً: إذا كان عقلاء الناس إنما يختارون لصحبتهم من

يرون صلاحهم وأمانتهم، فالنبي ﷺ خير الناس وأعقلهم، وبالتالي فإنه لن يختار للقرب منه إلا أقرب الناس إلى الخير، وأبعدهم عن الشر.

ثالثاً: من قرأ في أحوال الصحابة وسيرهم وجدَّهم قد بلغوا الغاية في تعظيم الوحي المنزَّل، والنبي المرسل. وشواهد هذه الحقيقة أكثر من أن تُحصَر، وأبين من أن تُذكر.

رابعاً: القرآن الكريم إنما نزل باللغة نفسها التي كانوا بها يتخاطبون، وعن مكنون أنفسهم يُعربُّون، وهذا من شأنه وحده أن يجعل لفهمهم مزيَّة، ولقولهم راحة على غيره، فكيف إذا اقترنت به الأوجه الأخرى؟!

خامساً: باعث تطلُّبهم لمعاني القرآن أقوى من بواعث من بعدهم؛ ذلك أنَّ أقوالهم وأفعالهم التي تصدر عنهم إنما تصدر في ذات الزمان الذي يتنزَّل فيه وحي الله إلى رسوله ﷺ، ومن الطبيعي جدًّا أن تتشَوَّف نفوسهم لأحكام الله المتعلقة بهم، وإجابات الله لسؤالاتهم.

ولكي تتصور المقصود بتمامه: ضع نفسك في زمن النبي ﷺ، وسل نفسك: هل سيكون إقبالي على القرآن - وأنا طالب

الحق - كإقبالي عليه الآن؟

سادساً: إذا كان من شأن المعلم الربّاني أن يظهر أثره على مستوى العلم والعمل فيمن أقبل على الأخذ عنه، فما هو الشأن في خير معلم - صلوات الله وسلامه عليه - بإزاء من امتلأت نفوسهم محبةً له، ورغبةً فيما اختصه الله به من علم؟! ومعلوم أن الله إنما ابتعثه إليهم خصوصاً، وإلى الناس عموماً = ليعلمهم ويزكيهم كما هو مقرر في غير آية من كتاب الله.

سابعاً: إذا كان الله في صريح الكتاب يُخبر بأنه قد أرسل الرسول ﷺ بدينه الخاتم الذي ارتضاه للناس كافة، فإن مقتضى ذلك أن يكون نقلة هذا الدين على غاية ما يمكن من الأمانة والعلم بهذا الوحي، وذلك ليبلّغوه عن النبي ﷺ إلى من بعدهم وصولاً إلينا، وأي خلل في نفوسنا من جهة أمانتهم أو علمهم بالكتاب ينجرُّ على حقيقة هذا الدين الذي نتعبد الله به؛ لأنه إنما وصل إلينا عن طريقهم!

فتلخص من هذا كلّهُ، أن فهم الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يوازيه فهم من جاء بعدهم، وإذا كان الأمر كما علمت فهم إذن معيار الفهم الصحيح لوحي الله المنزل.

وهنا حقيقة أرى ضرورة التأكيد عليها:

لا حاجة لنا بخطاب الله لخلقه إن كان هذا الخطاب خاضعاً لما ينتجه البشر من أفكار وممارسات في أي زمانٍ ومكان؛ لأن هذا الأخير حاصل سواء نزل الوحي أو لم ينزل، ولازم هذا التقرير أن يفقد الوحي قيمته، ويصبح كلام الإنسان المخلوق خيراً من كلام خالقه - تعالى الله علواً كبيراً -

والصحيح أن يُقال: خطاب الله إلينا متضمّن لحقائق وتوجيهات من شأنها أن تحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو - أي الخطاب - متوجه إلى الإنسان بما هو إنسان بغض النظر عن زمانه ومكانه.

إجماع علماء الشريعة معصوم:

إن الأحكام الشرعية منها ما هو مجمعٌ عليها^(١)، ومنها ما ليس كذلك، ولما أُجمع عليه مستند من الوحي، وثبوت الإجماع له طرق معروفة عند علماء الإسلام، كما أن ثبوته متفاوت في المسائل؛ فمنها ما ثبت الإجماع فيه قطعاً، ومنها ما ليس كذلك، وحينما أقول: «للاجماع مستند من الوحي» فإن

(١) أي: اتفق علماء الشريعة عليها.

لازم هذا اليقينُ بحجتيه إن ثبت، وذلك للأسباب التالية:-

الأول: أن الله تعالى أنزل القرآن لهداية الناس، ومن قرأه وجد هذه الحقيقة ماثلة أمام ناظريه، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [سورة البقرة: ٢] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۝﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] وغيرها من الآيات.

وفرض خطأ الكل يستلزم بطلان هذه الآية؛ إذ لم يهتدوا به مع تطلبهم للهداية!

الثاني: الله تعالى قال في غير آية في القرآن أنه مبين، ومن تلك الآيات: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾ [يوسف: ١] وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾ [الزخرف: ٢]، ومعنى المبين أي الواضح في بيان ما يريده الله من عباده، والإجماع إن كان على باطل لم يكن القرآن مبيناً!

الثالث: ذكر الله تعالى في غير آية أن القرآن نزل بلسان عربي، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ [سورة يوسف: ٢] وإذا أجمع العارفون بلسان العرب

- وأولهم الصحابة - على حكم شرعيٍّ لزم أن يكون إجماعهم حقاً، وإلا كانت هذه الآيات باطلة إذ لم يفهم العرب الأقحاح مدلول القرآن!

وبهذا ثبت أن الإجماع حجة على كل مسلم، وأن عدم اعتباره حجة يؤول إلى لوازم باطلة، وكما هو معلوم في قواعد الاستدلال: بطلان اللازم دليل على بطلان الملزوم.

أحكام الدين لا تنحصر في جانب من الحياة دون جانب: ^(١)

هذا التقرير لا يحتاجه من يفهم معنى الدين، أما من يجهل معناه فتراه ينادي بفصله عن بعض شؤون الحياة أيّا كانت، وهذا بلا شك باطل؛ وذلك لأن الدين ما هو إلا التعريف بالله وبمراده، ومراده متعلّق بأقوال الإنسان وأفعاله في هذه الحياة، والحياة تشمل مجالات متعددة.

فهل الله تعالى أباح جميع الأقوال وجميع الأفعال حين تكون داخلية في مجال معين؛ كالتجارة ونحوها؟!

(١) - الحجة المساقة هنا تفهم بالتسليم بوجود الحساب والجزاء، أما من لا يُسلّم به فله مسلك آخر، كما أنه بعدم تسليمه لا يستطيع التأسيس للحقوق ليطالب بعده بالتحاكم إلى أنظمة حقوقية معينة!

من يجيب بالإثبات مطالبٌ بالدليل، والدليل لا بد أن يكون وحيًا إلهيًا، والوحي المحفوظ إنما هو قرآنٌ وسنة، وحين نرجع إليهما نجد أن أحكامهما داخلية في جميع شؤون الحياة! وقد يقول قائل: أنا مسلمٌ بأن الدين الحق واجب التحكيم في جميع شؤون الحياة، ولكن أهله مختلفون، وكلٌّ يدَّعي أن ما عنده هو الحق، وهذا يعني أنه لا يمكن أن نتحاكم إليه، إذ التحاكم إليه تحاكمٌ إلى ما لا نجزم أنه من الله!

والجواب: قد سلَّمت لنا بأن الدين واجب التحكيم، ونحن إنما نتكلَّم عن الإسلام، ومبنى الإسلام على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وأكثر نصوصهما واضحة لا غموض فيها، وقد أجمع العلماء على كثير من الأحكام المستنبطة منها، فإذا عرفتَ هذا لم يكن اعتراضك منصبًّا على هذا القدر، فيلزمك حينئذٍ التحاكم إليه بموجب إقرارك بوجوب تحكيم حكم الله تعالى، أما ما وقع فيه الخلاف فإن الحق لا يخرج عن قول المختلفين، والترجيح بين أقوالهم له طريقه المعبرة المفضية إلى ما يجزم المرء معه بسقوط مؤاخذه الله له يوم القيامة.

ثم إن الأخذ بقول له ما يسنده من الوحي وإن لم يكن الوحي قطعياً في دلالة عليه = خير من الأخذ بقولٍ نقطع بأن الوحي لا يدل عليه!

فالمرء بين أن يأخذ بحكم يُنسب إلى الله وله أدلته، أو أن يأخذ بحكم آخر منبت الصلة بالله، ومعلوم أن التحاكم إلى الأول أقرب إلى الخلوص من عذاب الله يوم أن يقف العبد بين يديه.

محكم الوحي هو الأصل الذي إليه نردُّ المتشابه:

في مبتدأ سورة آل عمران قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧] والمقصود بالآيات المحكمة: أي

واضحة الدلالة، بمعنى أن معناها واضح لا يلتبس على أحد؛ كقول الله تعالى ﴿وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [سورة البقرة: ١٦٣]. أما المقصود بالمتشابه فهي التي تحتل معنى احتمالاً مرجوحاً

يوافق هوى المبطل^(١)، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩] فيستدل بها النصراني مثلاً على عقيدته في أن الله ثالث ثلاثة، فيقول: (إِنَّا نحن نزلنا) ضمائر دالة على الجمع، وأقل الجمع ثلاثة، إذن فالله ثالث ثلاثة!

وهذا منه كذب وافتراء على الله وكلامه؛ لأن هذه الضمائر كما تستخدم في لغة العرب للجمع، فهي أيضاً تستخدم لتعظيم المتكلم نفسه، فلاحظ كيف أنها دلت على معنيين جاز أحدهما للمبطل، ولو صدق مع نفسه وردّه إلى المحكم كقول الله تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٦٣] لم يجد في الوحي ما يوافق باطله!

والحكمة من هذا -والله أعلم- أن يجعل الله لمن أثر هواه على الحق منفذاً ينفذ من خلاله؛ وإلا لكان من حيث الظاهر معتقداً للحق قائماً به، بينما هو في حقيقة أمره كاره له! وقيامه به لا لأنه امتثل أمر الله تعالى، وإنما لأنه لم يجد ما يتشبّه به في

(١) راجع تفسير الإمام السعدي -رحمه الله- للآية.

تسويغ هواه؛ فكاره حرارة الشمس مرغم على الإقرار بها. فهناك إذن، فرق بين المعرفة والحب، وإقرارك بالشيء لا يعني محبتك له!

ولأن كل إنسان لا يريد استقباح غيره له، فلن يعترف امرؤ بكرهه للحق؛ إذ الناس قد أجمعوا على أن «مدار كمال المخلوق على حب الحق وكرهية الباطل»^(١) والبشر إنما يطلبون الكمال إما حقيقةً أو ادعاءً أو نفياً، أما الحقيقة فكمن يعمل لبلوغه، وأما الادعاء فكمن يعلمه ويتحدث بطلبه ثم لا يعمل، وأما نفياً فهم الذين ينفون كونه في غير ما هم عليه من ضلال.

وقد يقول قائل: كيف لإنسان يعلم الحق، ثم يعلم بأن مخالفته له قد تخلّده في النار، ومع ذلك يُعرض عن الحق لهوى في نفسه؟!

والجواب أن يقال:

أولاً: من ادّعى أن «الإنسان كلما عرف الحق اتبعه» مطالبٌ بالدليل، وليس له أن يأتي بدليل إلا بعد أن يفتح قلب كل فرد

(١) القائد إلى تصحيح العقائد للمعلمي ص ٩

من البشر في كل زمان ومكان، ثم يراقب موقف كل منهم من كل حقٍّ يعرض عليهم؛ وهذا مستحيل!

واستحالة الدليل على هذه الدعوى يعني إمكان - أقول إمكان! - وجود من يعلم الحق ثم يخالفه أو يشكك فيه.

ثانيًا: ليس كلٌّ من خالف الحق كان متيقنًا بدخوله النار؛ فبعضهم يقرن مخالفته له بأعذارٍ يرى أنها عاصمة له من عقاب خالقه، مثل:

- نظره إلى مجرد رحمة الله تعالى.

- أو زعمه بأن الدليل لا يكفي، وأن له على الله حجة، كأن يقول: «لو كان الدليل قاطعًا لما وُجد من يخالف فيه» بينما الإشكال في تعنت المخالف لا في الدليل!

- أو تأخيره لقرار الإيمان بحجة أنه لا يزال باحثًا عن الحق، فيدخل في تفاصيل لا يؤثر جهله بها في قرار إيمانه! ^(١) ويظن أنه بذلك سالم من مؤاخذه الله له.

(١) - ككثير من أسئلة (لماذا) لماذا لم يخلق الله آدم مباشرة في الأرض؟ لماذا لم يبعث الله رسولاً في زماننا؟ وغيرها مما ليس له علاقة أصلاً في معرفتك بأن الخطاب الموجه إليك من الله أو لا!

وغير ذلك من الأمور التي بها يتملّص من الإقرار بالحق والانقياد له.

ثم إن الطريقة الصحيحة في التعامل مع ما يشتبه عليك هي: التمسك بالمحكم وجعله أصلاً يُحتكم إليه، ثم فهم المتشابه على ضوءه، وبهذا يستقيم النظر، وتندفع موجبات الضلالة - بإذن الله-، أما من لا يبتغي الحق؛ فسيحكم المتشابه ويتشبّه به!

بعض المخاطبين بالوحي يسعون إلى دحضه بإثارة الشبهات حوله:
الله تعالى أنزل ديناً واضحاً بيناً لمن صدق في طلب الحق، وترك للزائغ ما يكشف عن هواه؛ فهو سبحانه علم ما في قلوب الناس، ولكنه لا يعاقبهم بمجرد علمه بما في قلوبهم من حب الحق أو كرهه، وإنما يعاقبهم -بالإضافة إلى ذلك- على ما قالوا وفعلوا، والزيغ قول وفعل لا يمكن أن يصدر عن المرء قصداً إلا بوجود أسبابه، لذلك جعل الله للزائغ أسباباً يتجلّى بها ما في دخيلة نفسه، وفي المقابل: كثف أدلة الحق بما تنقطع به معذرة المكلفين.

ولأن الحق قد يعارض أهواء الناس؛ فإن منهم من يؤثر هواه

عليه. ولأن مخالفة الحق قبح باتفاق العقلاء، فإن كثيراً من المخالفين له سيسعون إلى دحضه؛ ليدفعوا عن أنفسهم تأنيب الضمير، ويدفعوا عنها -أيضاً- ما اتفق العقلاء على قبحه. فهذه الطريقة الأولى للتخلُّص من تبعات نبذهم للحق، وأما الطريقة الثانية فهي الاعتراف به واتباعه، وهذه تحتاج عزماً منهم، وصدقاً مع أنفسهم، فإن غلبتهم بكسلها وهواها، زادهم ذلك كرهاً للحق وأهله إن تمكَّن الحسد من قلوبهم؛ لأنهم حينئذ يرون فيهم كمالاً يفتقدونه!

وقد أشار الله في كتابه إلى محاولة الكفار لدحض الحق فقال: ﴿وَيَجِدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [سورة الكهف: ٥٦].

وعن حسدهم قال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩].

وإذا علمت أن الشبهة في حقيقتها دليل يستدل به المبطل على باطله؛ فإن النظرة الصحيحة لها بأن توضع في موضعها اللائق بها، فلا تهوّل فيرتبك المرء، ولا تتجاهل فيضيع الحق!

ويكون ذلك بالمقابلة بين دعوى الفريقين، ثم التمسك بما قام عليه البرهان؛ فحين يقول المسلم مثلاً: محمد رسول الله. يقول المخالف: محمد ليس رسول الله.

وهذان قولان متناقضان، والمتناقضان لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ بمعنى أنه لا بد أن يكون أحدهما حقاً، والآخر باطلاً. والثمرة من هذا تكمن في دفع ارتباك المرء حين يواجه سيلاً من الدعاوى، كقول المخالفين -هداهم الله إلى الإسلام-: «محمد مجنون» أو «محمد شاعر» أو «محمد ساحر»؛ فإن هذه دعاوى متعددة، لكنها في الحقيقة تهدف إلى نفي الرسالة عن النبي محمد ﷺ، فإذا أُثبت له النبوة بدلائل الحق، بطلت كل دعوى تنافي ثبوتها من دون الحاجة إلى إبطال كل دعوى على وجه التفصيل.

وبهذا تطمئن نفس طالب الحق ويعرف أن كل ما يخالف الحق ما هو إلا دليل باطل يستدل به المخالف، وعلمه بطلانه لا يتوقف على معرفة وجه البطلان فيه على وجه التفصيل.

الأساس العقلي للإيمان بالغيب:

ورد في بداية سورة البقرة الشاء على المؤمنين بالغيب ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ومعنى الإيمان بالغيب: هو الإقرار بوجود موجودات خارج نطاق المشاهدة والعقل، وهذا الإقرار مبني على خبرٍ أخبر به مخبرٌ جديرٌ بالتصديق، وسأتحدث عن الغيب من عدة زوايا:-

الأولى: هل يمكن أن يبعث الله نبيًا تكون كل أخباره وأوامر مدركة بالعقل؟

الغيب المحض -وهو الذي لا يمكن للإنسان الوصول إليه في هذه الدنيا برؤيته أو عقله- مما تميزت به النبوة، فإنه من المعقول جدًا أن نجد في كلام مدَّعي النبوة الأخبار عن غيوبٍ من هذا القبيل؛ لأنه إنما يأتي الناس بأخبارٍ يزعم بأن الخالق قد اختصه بها، ولا سبيل للبشر إلى معرفتها من دونه.

الثانية: هل من العقلانية إنكار الغيب؟

إن لدى الإنسان ثلاث وسائل أساسية بها يُدرك ما هو موجود خارج ذهنه، وهي:

الحواس: وبها يدرك الإنسان وجود ما يراه أو يشمُّه أو يلمسه أو يتذوقه أو يسمعه، ومعلوم أن الحواس التي بها تحصل الرؤية، والشم، واللمس، والتذوق، والسمع = لا تتجاوز محيط الإنسان نفسه، وهذا المحيط لا يمثل كل الواقع، بل هو جزء منه، وعليه فلا بدَّ إذن من وسيلة أخرى بها تتسع مدارك الإنسان ويفارق الحيوان، ألا وهي:

العقل: وهو شيءٌ في الإنسان امتاز به عن الحيوان، من خصائصه: إدراك بعض ما غاب عن الحس؛ وذلك لأن إدراكه للغيبات منوطٌ بوجود أثر لها، وهذا يعني أنَّ ما لا أثر له لا يمكن للعقل إدراكه، وهو عنده في حيز الإمكان، ووسيلة إدراكه:

الخبر: فبه يدرك الإنسان ما توارى عن حسِّه وعقله، وهذا لا يعني أن يقبل كل خبر، ولكن، المقصود أن الخبر مصدر من مصادر المعرفة الإنسانية؛ وذلك وفق معايير موضوعية ليس

هذا موطن تفصيلها.

وبهذا نعلم أن من يشترط رؤية الشيء، أو سماع صوته؛
للحكم بوجوده = قد نزع ربقة العقل عن عنقه، وردم عتبة
الفرق بينه وبين الدواب الحيوانية!

الثالثة: قد يسأل سائل: لماذا بعض الغيبات لا يستطيع أن
يتصورها الإنسان في هذه الحياة؟

والجواب أن يُقال: حقائق الأشياء التي تعلقت بها حواس
الإنسان - كالشجر والحجر وغيرها - ليست هي كل
الموجودات، ولا يلزم أن يكون ما غاب عنا مماثلاً لما
شاهدناه، وحينئذٍ فإن العقل إذا أراد أن يتصور بعض
الموجودات الغيبية كلّ وعجز؛ وذلك لأن العقل محصور في
خبرة الإنسان الحسية، وتلك الموجودات الغائبة لا تدخل في
نطاق خبرته؛ بمعنى أنه لم يسبق له مشاهدتها، أو مشاهدة شيء
يمثلها، فلمّا تعذّر الإحساس بها في الحياة الدنيا، ولم يكن لها
مماثل؛ عجز العقل عن تصور كيفيتها. ومن هنا يحكم بعض
الناس على ما يُخبرون به بأنه مخالف للعقل، بينما غاية ما في
الأمر أنهم نظروا في ذاكرتهم فلم يجدوا من بين الأشياء التي

شاهدوها هذا الذي أُخْبِرُوا به، وكذلك لم يروا له مماثلاً،
فالتبس عليهم عجز العقل بما يحكم العقل بامتناعه.

يقول المعلمي - رحمه الله -:

«الأغلاط في النفي أكثر منها في الإثبات؛ وذلك لكثرة
اعتماد الإنسان في الحكم بالنفي على استقراءه الناقص، فلو لم
يثبت عندك قطعاً تفاوت الناس في الإبصار لكنت إذا تراءيت
الهلال أنت وآخرون فادّعوا رؤية الهلال وأنت لا تراه تكذبهم.
وقس على هذا سائر الحواس»^(١)

وأضرب لك مثلاً:

هب أنّك خرجت من غرفتك وهي على غاية ما يمكن من
الفوضى، وأغلقتها بإحكام يضمن لك عدم دخول غيرك لها،
ثم رجعت بعد ساعة فوجدت ساعة الحائط في مكانها
المناسب، والدولاب في جهته الخاصة من الغرفة، واللوحة في
منتصف الجدار.. وهكذا كل شيء فيها وُضع في مكانه
الصحيح. إن العقل هنا يجزم بأن ثمة فاعلاً متصفاً بالعلم،
والقدرة، والإرادة قد فعل هذا كله، ونحن إذن في تفسير ما نرى

(١) يسر العقيدة الإسلامية ص ١٣

ليس لنا إلا أحد احتمالين:

الأول: أنَّ موجودًا آخر غير الإنسان فعل هذا.

الثاني: أنَّ إنسانًا لديه قدرة خارقة مكنته من الدخول إلى

الغرفة من دون حاجة إلى فتح الباب.

وفي كلا الاحتمالين يكلُّ عقلك عن تصور حقيقتيهما كما هي في الواقع؛ فإنه على الاحتمال الأول، أنت لا تعلم متصفاً بهذه الصفات إلا الإنسان، بينما هذا الشيء يخالف الإنسان في حقيقة ذاته، مما يعني أنك لم تر له مماثلاً، كما لم يسبق لك رؤيته. وعلى الاحتمال الثاني، أنت عاجز عن تصور كيف حصل منه ما حصل؛ إذ لم تره وهو يفعل ذلك، ولم يسبق لك رؤية فعلٍ مماثل.

فلاحظ أن عقلك أثبت وجود ذاتٍ -على تقدير أن ذلك الشيء شيء يتصف بالقدرة، والعلم، لكنه ليس بإنسان- أو فعلٍ -على فرض أنه إنسان قام بفعل خارق- من دون توقُّفٍ على معرفة حقيقة تلك الذات أو ذلك الفعل، وهذا يعني أنه ليس كل إنكار للحقائق الغيبية، أو الأفعال الخارقة مما يقتضي العقل إنكاره، وإنما قد يكون سببه احتكام إلى خبرة حسية

سُوِّيتْ بالواقع، بينما الواقع أوسع منها!
ولأقرب لك الفكرة أكثر: آتيك بأمور نعلم ثبوتها الآن،
لكننا نجزم أنها لو عرضت على أناس قبل ألف سنة أو أكثر
سيكذبها بعضهم، ومن تلك الأمور:

• **الطيارة:** هب أنك قلت لشخصٍ يعيش في ذلك الزمان
أنه سيكون في المستقبل مركب يحمل عشرات الناس، ويحمل
معه أمتعة بالأطنان، ثم يطير في السماء من شرق الأرض إلى
غربها في ظروف ساعات فقط، هل سيصدق؟ ربما سيكذب،
والسبب؛ أنه يصعب على عقله أن يتصور هذا، وكلنا يعلم أن
سبب تكذيبه -لو كذب- قصور عقله!

• **الجوّال/الهاتف:** حين يجلس شخص على بعد أمتارٍ
منك يحدث شخصًا بالطرفِ الآخر من الأرض فيسمعه فورًا،
وأنت لا تسمع شيئًا مما يقول أو يُقال له = فحتمًا ستكون هذه
الواقعة صعبة التصوّر -فضلاً عن التصديق- حين تذكر
لشخصٍ يعيش في ذلك العصر المذكور، وما ذاك منه إلا
لقصور عقله عن الإحاطة بحقائق الوجود.

وقس على هذين المثالين أمثلة كثيرة في الوجود، لولا إلّٰنا

لها لاتسعت أفقُ عقولنا حين تُحَدِّثُ بما يصعب عليها
تصوره!

الرابعة: لماذا ورد في الوحي الإخبار التفصيلي عن غيبات
يصعب على العقل تصورها؛ وبالتالي قد تكون منفرة لكثيرين؟
والجواب: الإنسان قد يُثَبِّتُ وجود شيء أو ينفيه
بالاستناد على حواسه أو عقله أو خبر المُخْبِر، وتصديق الخبر
منبثق عن الثقة بمن أخبر به؛ وكلما زادت ثقتك به، زاد يقينك
بصدق خبره، وعلامة ذلك أنك لا تطلب شهادةً من العقل، أو
الحس، أو خبر آخر يشهد له. وأضرب لذلك مثلاً: تخيل معي
أنَّ شخصاً يستمع إلى أخبار قناة ما، وكلما سمع خبراً منها
انتقل إلى قناة إخبارية أخرى لينظر هل يخبرون بنفس خبرها
أم لا، أيكون من هذا حاله واثقاً بالقناة الأولى؟ لا! فهو إما أنه
يستبطن جواز أنهم يكذبون، أو أنهم غير دقيقين فيما ينقلون،
وهذا الأخير طعن في علمهم.

إذن تصديق من يخبرك بأمر غيبي يتضمن ثقتك به، ومن
هنا تعلم حكمة من حكم ورود الأخبار الغيبية في القرآن؛ ألا
وهي تمييز الواثق بخبر الله ورسوله ﷺ ممن لا يثق بها فيعلق

تصديقه على شواهد من خارج كلامهما، ولا حجة في عجز العقل عن تصور حقائق تلك المغيبات التي جاء ذكرها في الوحي؛ إذ لا تلازم بين عجزه عن تصورهما وانتفائها كما بينت في جواب السؤال السابق.

وقد يقال في الجواب أيضًا: طبيعة الوجود تقتضي إخبار الوحي بموجودات نعجز عن تصورهما للسبب المذكور آنفًا؛ فالله خلق الحياة الدنيا على هيئة معينة، وخلق حياة أخرى على هيئة أخرى؛ فكان في إخباره عن الثانية ما تكل عن تصويره عقولنا المحصورة في حقائق الحياة الأولى (الدنيا)!

الخامسة: كيف تكون حقائق الإسلام كلها عقلانية؟

الغيبات منها ما يدرك بالعقل من خلال رؤية آثارها في الوجود^(١)، ومنها ما لا يدركه العقل لعدم وجود آثار لها تدلُّ عليها، وكل حقائق الإسلام الكبرى - وجود الله وكمالهِ، ووجوب عبادته، والنبوة، والبعث بعد الموت، والحساب والجزاء - ثابتة على وجه الإجمال في الفطرة، والعقل الصريح

(١) يقول ابن رشد الحفيد: «والعقل ليس هو أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها.. فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل»!

دالٌّ عليها؛ وبالتالي فإن إنكارها، إنكار للعقل! أمّا الغيبات التي يقصر العقل عن إدراكها مباشرة؛ فإنها جاءت عن طريق رسول علمنا صدقه بالبرهان، فيكون كل ما أخبر به حق؛ ومن ذلك الغيبات التي ليس لنا إلى إدراكها طريق مستقل عن إخباره، وهي فرعٌ عن الإيمان به.

ضرورة توجه العبد إلى ربه بالطلب:

إن من يلقي نظرةً على نصوص الوحي يجدها متضمنةً للحث على الدعاء والحض عليه، ومع ذلك فإن كثيرًا من المسلمين -فضلاً عن غيرهم- تلبس عليهم حقيقته، لذلك سأشير إلى نقاطٍ أرى أهميتها فيما يتعلق بالدعاء:-

الأولى: الدعاء -بمفهومه الشرعي- طلبٌ يتوجه به العبدُ إلى ربه، وهو توجهٌ من أدنى إلى أعلى، من فقيرٍ إلى غني، من مملوكٍ إلى ملك، من ضعيفٍ إلى قوي، من عاجزٍ إلى قادر... فما معنى هذا كله؟ معناه أنه ليس للإنسان أن يتخلّى عن الدعاء إذا ما استجيب له؛ إذ لا غنى له عن ربه طرفة عين، كما أنه ليس للإنسان أن يعترض على ربه إذ لم يستجب؛ لأن الله هو الحاكم، وهو القاضي، ولا معقب لحكمه!

الثانية: لا تعارض بين الدَّعاء وبذل الأسباب؛ فالله - عزوجل - هو خالق الإنسان، وكذلك هو خالق كل شيء؛ فإذا أراد الله إجابة دعائك حَقَّقَ لك مطلوبك بلا أسباب أو بتهمة الأسباب، وهو على كل شيء قدير، ومن تأمل في أحوال الناس عرف هذا.

الثالثة: الله - عزوجل - جوادٌ كريم، بل هو أكرم من يُقصد ويُسأل، وهو غني لا ينقص ملكه بعطائه، ومطلوبك منه يتحقَّق بتوحيده؛ ولذلك حتى الكافر حين يقع في ضرٍّ شديد، ضُرَّ ينسيه كل شيء إلا من فَطَرَه، عند هذه اللحظة يوحد ربَّه؛ فيستجيب له كما أخبر الله في غير آية من القرآن.

الرابعة: لو أجاب الله سؤال كل من يسأل، وأعطاه عين مسؤوله، لما كان ذلك موافقاً للحكمة التي من أجلها خلق الدُّنيا. وأضرب لذلك مثلاً يتضح به المقصود - والله المثل الأعلى - : هَبَّ أَنْ أَبَا يَجِيب سؤالات ابنه كلما سأل، هل يكون هذا الأب حكيماً ونحن نعلم بأن ابنه قد يُصبح خيراً أو شراً، والخير اختياراً إنما هو من تهذب وتربَّى؟! إن كل المرئيين في جميع الأمم، متفقون على أن تلبية كل رغبة لمن يمكن انحرافه

= حائل يحول بينه وبين زكاء النفس.

ولكن قد يقول قائل: نعم، أعلم هذا وأوافقك عليه؛ ولكن، أنا إنما طلبتُ الله شيئاً معيناً أعلم نفعه.

والجواب: الله يعلم وأنت لا تعلم، وقد يكون عدم جوابه لتقصير صدر منك، ويريدك أن تراجع نفسك، أو أنه يعلم بعلمه الشامل أمراً يستوجب في ضوء الحكمة عدم الجواب.

المهم أن تعلم أن الله قدير، كريم، حكيم. ومن كان هذا وصفه؛ فالأصل أنه يستجيب الدعاء إذا تحققت شروطه، وانتفت موانعه.

الرابعة: هناك من الناس من يتعامل مع الله معاملة تجارية نَدِيَّة، تعطيني أعبدك، وإن لم تعطني أكفر بك! -نعوذ بالله-. وهو في معاملته هذه كأنه يتعامل مع مخلوق مثله، لا مع خالق له الغنى التام عنه!

وهؤلاء قد خسروا الدنيا والآخرة، وهم من قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾ [سورة الحج: ١١]

ولذلك؛ فإن من حِكم عدم إجابة الدعاء؛ أن يظهر من يدعو الله موقفًا بأنه لا غنى له عن الله طرفه عين، ومن يدعو الله وكأنه ينادي خادماً يجب عليه أن يلبي مطلوبه -تعالى الله علواً كبيراً-

التسليم لله لا يتوقف على إدراك حكمة ما يأمر به، أو ينهى عنه؛

إن صفة الحكمة من صفات الكمال التي يجب أن يتصف بها الخالق، والإقرار بها لا يتوقف على ورود وحيٍ إلهيٍّ يثبتها، فإن الفطرة والعقل يستوجبانها أيضاً، ولذلك طرقٌ ليس هذا موطن ذكرها؛ إذ المهم هنا هو بيان علاقتها بالأحكام الكونية والشرعية، ثم إدراك الإنسان لتفاصيلها من عدمه، فأقول وبالله التوفيق:

أمّا من حيث علاقتها بأحكام الله تعالى، فإن كل حكم شرعي^(١)، أو كوني^(٢) له حكمة أرادها الله تعالى، بمعنى أنه لم يوجد شيئاً، ولم يُكلّف العبدَ بما كلّفه به = إلا لأمرٍ يحبه الله تعالى. وهو سبحانه لا يحب إلا ما كان حسناً في ذاته،

(١) كالأمر بشيء أو النهي عنه.

(٢) كوجود شيء أو عدمه.

ومحبوبًا لذوي الفطر السليمة، وهذا المحبوب يتحقق بما أوجده أو أمر به.

والسؤال الآن:

هل الإنسان قادر على معرفة حكمة كل موجود أو كل تكليف؟
لو كان الإنسان كذلك لكان عِلْمُ المخلوق مساويًا لِعِلْمِ خالقه، وهذا لا يقول به عاقل!

ولو فُرض أن الإنسان يدرك حِكَم جميع أفعال الله، وأوامره، ونواهيه = لربما شك في حقيقة التفاوت بين علم الخالق وعلم المخلوق، فكانت هذه شبهة يبحث عن حلٍّ لها كي يعبد الله؛ إذ المعبود لا بد أن يكون أعلى وأجل من عابديه!

وهنا سؤال آخر:

هل من حق الإنسان أن يعرف حكمة كل موجود ذي صلة به، وكذلك كل أمر يُؤمر به؟

والجواب نعم، وذلك إذا كان كل ما يجري حوله صادر عن مخلوق؛ لجواز أن يكون في فعله، أو أمره، ما يخالف الحكمة والعدل. أمّا وكل ما في الوجود من خَلْقٍ خَالِقٍ لَهُ

الكمال؛ فهذا الاشتراط باطلٌ؛ لأنَّ موجبَه - الذي هو الجهل والعبث - منتفٍ عنه سبحانه؛ وبهذا تعلم، أنَّ أساس هذا الاشتراط هو تشبيه الخالق بالمخلوق، بجامع جواز العبث والظلم، وبطلان الأساس مستلزم لبطلان فرعه اللازم عنه.

كما أنَّ من يشترط هذا لا يفهم العلاقة بين الخالق والمخلوق، وهو ما ستقرؤه الآن:

كمال الإنسان الأقصى في عبوديته لربه:

حقيقة العبودية ولبُّها هو إعلان الافتقار المطلق لله تعالى، وهذا يعني أنها أكمل درجة يمكن أن يصل إليها الإنسان؛ فيها يحقق الانسجام التام بين أقواله وأفعاله الاختيارية من جهة، وحقيقة ذاته من جهة أخرى؛ فالأفعال تطابق الأقوال، والأقوال موافقة للواقع الذي أفاد بأن الإنسان عبدٌ لله قهراً؛ نافذة فيه إرادة ربه، ولا خروج له عن ملكوت سيده!

وهذا يعني أنَّه لا يحق للإنسان أن يشترط على ربه؛ إذ المتضرر بالترك هو لا غير، ومن كان هذا حاله وجبت عليه الطاعة دون أي شروط وقيد!

ليس كل ما تهواه نفسك حق وخير:

إن ورود الوحي الإلهي بما يخالف الأهواء أمرٌ ظاهر بجلاء، فصلاةٌ تقطع عنك لذيق النوم، وصيامٌ يمنعك أصناف الطعوم، وحجٌّ يلفحُك فيه حرُّ السموم، كل هذا، أو غيره، قد يتضمن مخالفةً لهواك.

ونحن إذا تطلَّبتنا حكمة ورودها استطعنا أن نصل - بتوفيق الله - إلى بعض تلك الحِكَم والتي منها:

١- بيان العلاقة بين الخالق والمخلوق.

إن المخلوق مفتقر إلى خالقه من كل وجه، والخالق غني عنه من كل وجه، والمخلوق المحتاج إلى ربِّه يفعل ما يؤمر به ما دامت قدرته على الفعل متحققة، فالإنسان مكلف بالإتيان بما كلفَ به وفق طاقته، وليس له أن يترك العمل تهاوناً، والله تعالى عليمٌ بما يتركه المرء عجزاً وبما يتركه كسلاً، فيعذره في الأول، ويؤاخذُه على الثاني - إن شاء -، ولن يخفى على علم الله كذب من ترك الفعل توانياً.

إذن، وجوب امتثال الإنسان بعد علمه بما يريده الله منه موقوف على مجرد وجود القدرة على الامتثال، وليس موقوفاً

على موافقته الهوى، ومن يشترط الثاني خاسر قطعاً، وليس له حجة على ربه ما دام أنَّ قدرته على الفعل حاصلة.

٢- التمييز بين الصادق من الكاذب.

لو كانت كل التكاليف موافقة لهوى الإنسان لم يين للعالمين الصادق من الكاذب. نعم، الله يعلم ولكنه سبحانه لا يعذب من علم عصيانه، وإنما يعذب من وقع منه العصيان، وبين الأمرين فرق السماء عن الأرض!

أقول: لو كانت التكاليف موافقة لهوى الإنسان لكان الكل في ظاهره محباً لله طالباً لرضاه، ولكن الواقع يفيد أنه ليس كل من ادعى المحبة كان صادقاً في دعواه، ولو مايز الله في يوم الجزاء بين الصادق والكاذب في دعوى المحبة، لكان عند الناس مفرقاً بين متماثلين، كما أنه لو ساوى بينهما فيه - أي: في دار الجزاء - لكان في حقيقة الأمر مساوياً بين مختلفين، ومعلوم أنَّ التسوية بين المختلفين والتفرقة بين المتماثلين ظلمٌ يتعالى الرب عنه!

والله - عز وجل - قد قضى بأن يعلم الخليقة كلهم يوم القيامة عدله التام، فيشهد الكل على أنفسهم وعلى غيرهم أن

الله لم يظلم أحداً مثقال ذرة.

إذن لو كانت التكاليف كلها موافقة لهوى الإنسان لكان الكل قائماً بها، وقيامهم بها كائن سواء أمروا أم لم يؤمروا؛ فحين تستيقظ من النوم جائعاً، ثم يأتيك أحدهم بطعام تحبُّه ويقول لك: «إن كنت تحبني كل هذا الطعام» فإنك ستأكله سواء كنت محباً له أو كارهاً!

ومن جليل العبارات في هذا المعنى ما حكاه الغزالي، حيث يقول: «كل ما أدرك العقل معناه (حكيمته) مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر فيه كمال العبودية لله، وإذن اقتضت حكمة الله ربط الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعداد»^(١).

٣- مرادات الخالق ومرادات المخلوق.

إنك لن تجد شخصاً عاقلاً يقول: «إن كل فعلٍ أراه يعود

(١) إحياء علوم الدين - بتصرف -

علي وعلى الناس بالمصلحة هو حتمًا كذلك» وهذا تسليم من البشر بقصور علمهم عن إدراك كل ما يمكن أن تتعلق به قُدْرُهُم من الأمور النافعة، وواقعهم خير شاهد؛ فكم انقلب الإنسان على قرارات كان يظنها بالأمس نافعة له!

وإذا كان هذا ناشئًا عن قصور علمه بما يصلحه وينفعه؛ فإن الخالق سبحانه منزّه عن هذا، فهو يدرك ما لا يدركه الإنسان، وحيثُ فلا غرابة من وقوع التضاد بين مراد الخالق منك ومراداتك أنت! والعقل السوي يقتضي تقديم الأول على الثاني؛ لأن أحكام الخالق هي قطعًا مطابقة للعدل وما يعود على الإنسان بالنفع، أمّا أحكام الإنسان - من حيث هي أحكام صادرة عنه - فإنها يجوز أن تقع بخلاف العدل ومصلحة الإنسان، وهذا الوجه وحده يوجب طرح الحكم الإنساني إذا عارض حكم الله، فكيف يُجعل والحالة هذه معيارًا تُردُّ إليه أحكام الله تعالى، فيثبت ما وافقها وينفي ما خالفها؟!

الحرية الحقيقية كامنة في قول الحق والقيام بالعدل؛

إن كثيرًا من الناس يتصور أن معنى أن يكون حرًا كامن في أن يقول ويفعل ما يشاء، لكنَّ هذا المعنى في حقيقته يجعل من

الإنسان بهيمةٌ من البهائم؛ إذ لا يتقيّد إلا بما يشتهي، ولا يصدر إلا عن هوى، بينما الإنسان العاقل إنما يريد في حياته إصابة الحق في أقواله والعدل في أفعاله، ولأن إرادته تعلقت بهما - أعني الحق والعدل - فحريته إذن بمدى قربهما!

ولأقرب لك الصورة دعني أضرب لك مثلاً:

هب أن شخصاً يريد الذهاب إلى بلدة ما، وليس لهذه البلدة إلا طريق واحد، فسلك طريقاً مختلفاً، أيكون صادقاً في إرادتها؟ وإن كان صادقاً أيكون عالمًا بالطريق المؤدي إليها؟ وإن كان صادقاً عالمًا أيكون قادرًا على سلوكه - أعني ذلك الطريق -؟

إن أحدًا من هذه الاحتمالات صادق ولا بد؛ إذ لو كان صادقاً في إرادتها - أعني تلك البلدة -، عالمًا بالطريق المؤدي إليها، قادرًا على السير فيه = لاستطاع الوصول إلى مراده.

كذلك من زعم أنه يريد الحق والعدل! يلزمه أن يصدق في طلبهما، ثم يعترف بهما وينصاع إليهما، وانصياعه هذا ناشئ عن اختياره إذ كان الحق والعدل هدفه الأقصى في هذه الحياة،

ومن خالفهما فإما أنه:

- كاذب في ادِّعاء طَلَبِهما،
- أو جاهل يحتاج إلى من يعلمه،
- أو عاجز عن تحقيقهما في نفسه،

وأخس الناس الأول؛ لأنه بهذا يكون كالبهائم التي تتبع ملاذَّ أنفُسِها، ومن كان هذا حاله فلا يستحق أن يقال عنه حر، كما لا تستحق البهيمة هذا الاسم!

وهنا أذكرُ بنقطة مهمة ذات صلة بمفهوم الحرِّية المتسق مع كرامة الإنسان - وهو ما ذكرته آنفًا - ألا وهي أنَّ الدين الإسلامي مجمع كل حقٍّ وعدل، وعليه؛ فإنَّ قربك من الحرية الحقيقية إنما هو بمدى امتثالكَ لتعاليم الإسلام، وكلما ازداد المتمسكون بهذا الدِّين غربة تجلَّتْ حرَّيتهم؛ فالمنجرف مع التيار مسلوب الاختيار!

العدل لا يقتضي المساواة؛

إن إقامة العدل بين الناس لا يكون بالمساواة بينهم؛ إذ المساواة قد تكون أحيانًا ظلمًا؛ كما لو ساويت بين الصادق والكاذب، والبريء والمجرم.

قد تقول: نعم، لا شك أن هذا ظلم، ولكن نحن نقصد التسوية بين أفراد المجتمع، والتسوية بين الرجل والمرأة... إلخ

والجواب أن يُقال: حين ميزنا بين الصادق والكاذب، والبريء والمجرم .. إلخ فنحن إنما بنينا التفريق بينهما على وجود علة صحيحة، وهذه العلة معلومة لنا، لذلك لم نعترض على من فرَّق.

وهنا يحق لي أن أسأل فأقول: حين نريد أن نحكم على الأشياء، هل نحن مدركون لجميع الأشياء من كل وجه، بحيث نكون مدركين لكل علة تقتضي تفريقاً بين اثنين؟ في الحقيقة، لا أعلم عاقلاً يدَّعي ذلك؛ لأنه يتضمن دعوى الإحاطة بحقائق الأشياء!

ومن هنا يُصبح الاعتراض على أحكام الشريعة المقتضية التفريق في الحكم بين الذكر والأنثى، أو أفراد المجتمع الواحد المتباينين في دياناتهم = لغو فارغ؛ لأنه يتضمن نفى العلة الموجبة للتفريق في الأحكام، بينما الحكم الشرعي يثبت وجودها. وإذا قابلنا الإثبات والنفي هنا وجدنا أن أحدهما

صادر عن الخالق، بينما الآخر صادر عن مخلوق، والمخلوق لم يحط علمًا بحقائق الأشياء لينفي وجود علة التفريق بمجرد عدم علمه؛ إذ القاعدة العقلية تقول: عدم علمك بالشيء لا يعني عدم وجود ذلك الشيء.

ولاحظ أنني أنطلق من كون المعارض على الشريعة لا يعلم علةً للتفريق بين شيئين جاء الشرع بالتفريق بينهما - كالذكر والأنثى، والمؤمن والكافر - فكيف إذا كانت الفروقات بينهما جلية ظاهرة وهو مع هذا يطالب بالمساواة؟! هنا تكون مساواته أشدَّ ظلمًا، وأكثر قبحًا!

الله لا يساوي بين من أدّى حقه ومن لم يؤده؛

إن العقلاء كلهم متفقون على أنّ الخير لا يُساوى بالشرّير مطلقًا. والخلل إنما دخل على المطالبين بالتسوية المطلقة بين المؤمن والكافر حين أخرجوا حقوق الخالق عن دائرة الحكم على الناس، ولهذا فهم لا يستشكلون التمييز بين من يسلبهم حقًا من حقوقهم وبين من يؤده لهم، وإنما المستشكل عندهم التمييز بين المؤمن والكافر، وكأن أداء حقوقه سبحانه - التي هي أولى الجهات في الحكم على الناس - لا تؤثر في الحكم

على الشخص!

ولقائل أن يقول: أتفق معك على أن الكافر - وهو من لم يؤدِّ حق الله - شرير، ولكن حسابه وجزاؤه على الله ما دام أنه لم يقع منه ضرر على المسلمين، وبالتالي فعلينا أن نعامله كما نعامل المسلم المسالم.

والجواب من وجوه:-

الأول: إيمانك بأن الله يمايز بين المؤمن والكافر في الآخرة يستلزم إيمانك بجواز أن يمايز بينهما في الدنيا، بل وجوبه؛ إذ إن الله لا يأمر عباده بالظلم الذي هو هنا مساواة الكافر بالمؤمن من كل وجه.

الثاني: مسألة التعامل مع الكافر ترجع في تحديد تفاصيلها إلى الله تعالى، ونحن إذا رجعنا إلى الوحي وجدناه بالفعل قد حدَّ حدوداً خاصة بالكافر، وعليه فلا مجال لأي تقرير يعارضها.

الثالثة: المطالبة بالتسوية بين المؤمن والكافر المسالم بحجة أن الثاني لم يؤذِ المسلمين = تتم عن تضيق في مفهوم الضرر وحصره بالديني منه، بينما الضرر في الإسلام يشمل الضرر

الديني والديوي على السواء، وهذا ما يقتضيه الإيمان باليوم الآخر؛ إذ حصول الألم في الدنيا لا يوازي حصوله في الآخرة، والشرعية كما جاءت بدفع الأضرار الدنيوية فهي كذلك جاءت بدفع الأضرار الأخروية، بل إن دفعها أهم لما يترتب عليها من آلام تضمحل عندها آلام الدنيا!

أمّا من لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء فلدرء ذمه مسالك متعددة، منها: ردّه إلى محل افتراقك وإياه، سواء إلى الإيمان بالله أو اليوم الآخر.

يجب أن تكون القوة لأتباع الدين الحق؛

إن الإيمان بالخالق واليوم الآخر، وأنه قد خلق البشر ليقولوا أقوالاً ويفعلوا أفعالاً جاء الوحي ببيانها، وأن من لم يقم بها استحق العقاب الإلهي... أقول إن الإيمان بهذا كله يقتضي أن نحب للناس ما نحبه لأنفسنا من تجنب عقاب الله بامتنال أوامرهِ واجتناب نواهيه، ولكي يتحقق ما نحبه لهم فلا بد من بذل الأسباب والتي من أهمها إزالة كل عائق يحول بيننا وبين هدايتهم، وإن من أعظم العوائق أولئك الذين يصدّون الناس عن مراد الله بالقوة العسكرية أو غيرها من القوى المُسَهِّمة في

تحقيق مقصودهم الفاسد. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧]

ولا بلوغ إلى ذلك - أعني: إزالة الحوائل بين الناس ومراد ربّهم - إلا بأن تكون القوة المادية الشاملة في أيدي المؤمنين بالله الذين هم خيرٌ للبشرية في دينهم ودنياهم.

وإن من أعظم الخطأ أن تكون هذه القوة بيد من يريد حرف مسار البشر إلى وجهة لا يرتضيها خالقهم، وهؤلاء سيبدلون قصارى جهدهم لتحصيل أسباب الغلبة سواء نافسهم المسلمون في ذلك أم لا، ومن هنا ندرك واقعية الإسلام حين أمر المسلمين بالإعداد والسبق، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]

يقول الإمام السعدي - رحمه الله -:

«أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]: لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

[سورة الأنفال: ٦٠]؛ أي: كل ما تقدرّون عليه من القوّة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعمل فيها أصنافُ الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطائرات الجوية والمراكب البرية والبحرية [والحصون] والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدّم المسلمون ويندفع عنهم به شرُّ أعدائهم وتعلّم الرمي والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ». ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ رِبَاطٍ أَلْخِيلَ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]: وهذه العلة موجودةٌ فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء. والحكم يدور مع علته؛ فإذا كان موجوداً شيء أكثر إرهاباً منها - كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد؛ كانت مأموراً بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلّم الصناعة؛ وجب ذلك؛ لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقوله: ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ

اللَّهُ وَعَدُوكُمْ ﴿ [سورة الأنفال: ٦٠]: ممن تعلمون أنهم أعداؤكم،
﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]: مِمَّنْ
سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به، ﴿ اللَّهُ
يَعْلَمُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]: فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم.
ومن أعظم ما يُعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد
الكفار، ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]: قليلاً كان أو كثيراً، { يوفَّ
إليكم } : أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن
النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف
كثيرة، { وأنتم لا تظلمون } ؛ أي: لا تُنْقَصُونَ من أجرها وثوابها
شيئاً».

ولأقرب لك الصورة أذكر لك مثلاً جامعاً:

هب أنك معلّمٌ داخل صفٍ دراسي، وحين بدأت تشرح
لطلابك درساً مهماً حاول أحد الطلاب أن يحول بينك وبين
تفهمهم بتشغيب يشتتهم، هنا إن كنت ذي قوة وصدق في نفع
طلابك ستبذل جهدك في ردع المشاغب، وستغلب مصلحة
المجموع على مصلحته؛ كأن تحرمه من الدرس، أو تنقص من

درجاته، أو غير ذلك مما يتحقق به مقصودك الشريف.

فالمثال تقريب لما قصد إليه الإسلام حين أمر أتباعه بأن تكون القوة في أيديهم، وذلك مبني على نقاط، أهمها:

النقطة الأولى: القوة ميزة يسعى إلى طلبها أتباع الحق وأتباع الهوى، ولن يتوانى عنها الصنف الثاني إن توانى في تطلبها الصنف الأول!

النقطة الثانية: من حاز القوة في جوانبها المتعددة كانت بيده أسباب التأثير، ولذلك جاء الإسلام بالأمر بجهاد الطلب.^(١)

النقطة الثالثة: هناك من يصد الناس عن طريق الحق. النقطة الرابعة: القوي الصادق في نفع الناس سيردع من يصدهم ليتحقق مقصوده.

(١) إياك أن يتبادر إلى ذهنك بعض الممارسات الخاطئة اليوم أو في التاريخ الإسلامي؛ فإن هذا الباب - وباب الحدود والعقوبات - قد أحكمته الشريعة وجعلت له ضوابط صارمة دفعًا للفوضى والظلم، وهو باب المعني بتنفيذه الحاكم المسلم.

النقطة الخامسة: قد يكون الردُّ بشيء تكرهه نفس المردوع، ومن أمثلة ذلك في الأحكام الإسلامية الحدود وفي ضمنها حد الردّة، وكذلك رق الكافر المحارب.^(١)

رضا الله عن العبد لا يعني أن تكون له الدنيا جنة؛

الإنسان في هذه الحياة إذا علم أن له خالقاً وجب عليه أن يقول ويفعل ما يرضي ربّه، ورضا الرب عن عبده غيب لا يستطيع أحد أن يجزم به، وإنما المجزوم به أن الله أكرم من أن يردّ عبداً صدق في طلب مرضاته، وأعظم طريق - بل الطريق الأوحد! به يعرف العبد مرضي الله وحيّه المنزل.

أقول: رضا الرب عن عبده غيب، وليس من أدلته رخاء الإنسان مادياً. قد دلّ على ذلك الوحي، كما دل عليه العقل باستحضار أن هذه الدنيا - بموجب النص القرآني - دار اختبار، وكونها كذلك يقتضي أحياناً أن يحصل المحبوب^(٢) لأعدائه،

(١) تجد تفصيل هذه القضايا في كتب الفقه الإسلامي، وأنا هنا إنما يكفيني أن أضع أساساً عقلياً به نزول كثير من الشبهات المثارة حول هذا الباب.

(٢) كالمال، والقوة، والرّفعة

والمكروه^(١) لأوليائه؛ إذ لو كان حصول ما تحبه الأنفس من الأمور الدنيوية مقترناً دائماً بطاعة الله، لدخل في دينه من لا يطلب سواها، وعلامتهم أنهم لو وجدوها في طريق غير طريق رضاه لآثروها عليه!

وفهمنا لهذه الحقيقة يدفع عن المرء الاغترار بمن حصلت له رفعة في الدنيا؛ لأن السؤال المنطقي حينئذ: هل أقوال هذا الشخص وأفعاله موافقة لما يريده خالقه منه؟

فإذا لم تكن موافقة لمراد الله، علمنا أن نهايته الخسارة والبوار. والاغترار بالمظاهر هو الفاصل بين العالم والجاهل؛ فالجاهل لا يجاوز نظره في الأمور طرف أنفه!

ولك في قصة قارون خير مثال على الفرق بين الجهلة والعلماء في النظر إلى من حصلت له زخارف الدنيا، يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّا قَرَرْنَا كَاتٍ مِّن قَوْمٍ مُّوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِّنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِهُ لَتَتَوَّأ بِأَلْعَصْبَةِ ۚ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ ﴾ (٧٦) وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ

(١) كالضعف، والفقر، والهزيمة.

اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَتَّبِعِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
 ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ
 قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ
 عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ
 الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ
 إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ
 اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا
 الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ
 مِنْ فَعَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴿٨١﴾
 وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
 بِنَا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴿سورة القصص: ٧٦-٨٢﴾.

الله تعالى خالق الظواهر الطبيعية وأسبابها المادية:

من المعلوم بدهة أن الله تعالى خالق كل شيء، لكن هذا
 لا يعني أنه سبحانه دوماً يخلق ما يريد خلقه بشكل مباشر. ولا
 يفهم هذا من نسبة الخلق إليه سبحانه؛ فحين نقول مثلاً: «خلق

الله المطر» فلا تعني هذه الجملة أنه أوجد المطر بغير أسباب طبيعية نعلم وجودها؛ إذ المعلوم بالملاحظة أن المطر وُجد بأسباب طبيعية، هذا أولاً.

ثانياً: أن هذه الأسباب تفتقر في وجودها إلى سبب، وكل سبب حادث يفتقر إلى سبب، وهكذا إلى أن يصل تسلسل الأسباب إلى متنهاها وهو الله تعالى.

والقرآن الكريم قد نسب المطر إلى الله تعالى في آيات كثيرة، وذكر شيئاً من أسبابه الطبيعية في آيات، مثال الأول قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢﴾ [سورة البقرة: ٢٢] ومثال الثاني - ذكر

الأسباب الطبيعية - : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَدَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [سورة الأعراف: ٥٧] وقس على ذلك جميع الظواهر الطبيعية التي نسب الله خلقها إليه.

وهذا التركيب - أعني نسبة الفعل إلى فاعلٍ لم يباشر

الفعل - مستعمل في كلام الناس؛ فالناس يقولون: «سجن الحاكم فلانًا» ولا يعنون بذلك أنه باشر سجنه بنفسه. وكذلك يقولون: «بنى الملك قصرًا عظيمًا» ولا يعنون أنه هو الذي باشر البناء بيده.

فلا تنافي إذن بين أن تكون الظاهرة بسبب طبيعي وبين أن يكون الله خالقها؛ لأن الله تعالى خالق الظاهرة وسببها، أو بعبارة أخرى: خالق الظاهرة بواسطة شيء مخلوق.

لا تعارض بين كلام الله تعالى ومكتشفات العلوم الطبيعية؛

إن معنى التعارض بين الدين والعلوم الطبيعية هو أن الوحي معارضٌ لنظرياتٍ توصِّل إليها البشرُ بأنفسهم، ويزعمون أنها حاكية عن الواقع كما هو. والتعارض بين ما يُزعم أنه وحي مع ما أدركه الإنسان بنفسه دليلٌ على أنه ليس وحيًّا إلهيًّا؛ لأن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق الأشياء، وجعل فيه قدرةً على التعرُّف والاكتشاف، ولا يمكن أن يخبرنا بخلاف ما تؤدي إليه قدراتنا المعرفية بصورة يقينية.

وفي نظري أن الكلام عن التعارض فرغٌ عن سؤالٍ قبلي

هو: هل ما يُدَّعى أنه وحي من عند الله هو كذلك؟
ومعلوم أن إثبات كونه وحياً إلهياً يفتقر إلى أدلة، كما أن نفيه - في ظل الإمكان العقلي - يفتقر إلى أدلة. ومن الأدلة على النفي إثبات وقوع التعارض، ولكي يُثبت لا بد من شروط:-
الأول: كون مدلول النص على وجه لا يحتمل غيره البتة.
الثاني: كون النظرية المدَّعى تعارض الوحي معها ثابتة بصورة لا تحتمل النقص.

ولكي يتحقق الشرط الأول لا بد من فهم الناظر للغة الوحي التي أنزل عليها فهماً لا يخالفه عليه علماء اللغة نفسها، أو أن يُنقل هذا الفهم عن العالمين بها إجماعاً؛ فلا يكون من بينهم من فهمها على وجه لا يخالف تلك الحقيقة المدَّعاة.

أما الشرط الثاني فلـكي يثبت فلا بد من أن تكون تلك الحقيقة المدَّعاة محل اتفاق بين أهل التخصص نفسه، وهذا يدرك باستقراء أقوالهم والنظر في أدلتهم.

وإن غاية ما يوصل إليه اتفاقهم هو الظن بثبوتها؛ فكم من دعوى في العلوم الطبيعية كان يعتقد علماء الطبيعة ثبوتها، ثم

جاء علماء العصر اللاحق بنقضها!

وفي هذا يقول مايكل كريتون: «أعظم علماء الطبيعة في التاريخ تكمن عظمتهم تحديداً في قدرته على كسر الإجماع، ليس هناك شيء اسمه الإجماع في العلم الطبيعي^(١)، لو كان إجماعاً لم يكن علماً تجريبياً، ولو كان علماً تجريبياً لم يكن إجماعاً»^(٢)

وللتمثيل لقوله أقول:

لا فوازيه نقض الإجماع على وجود الفلوجستون، وباستور نقض الإجماع على التولد العفوي للكائنات الحية، وألفرد فجنر نقض دعوى أن القارات ثابتة لا تتحرك، والإجماعات المنتقضة في باب توصيف الأمراض، وأسبابها، وعلاجها لا تكاد تحصر في القرنين الماضي والحالي.^(٣)

(١) - لاحظ أنه يخصص بالعلم الطبيعي، أما الإجماع حول فهم معين لنص محدد فهذه حجة لا تكسر إذا كانت من العارفين بلغة النص.

(٢) - عن كتاب الإلحاد للدكتور حسام الدين حامد، ص ١٠٠.

(٣) لا أقصد التقليل من شأن العلوم الطبيعية، والكلام عن منزلتها وأهميتها ليس هذا محله؛ إذ المقصود هنا بيان أنه ليس كل ما يدعى أنه حقيقة علمية هو كذلك، فإياك أن تغتر ببراعة المونتاج أو باللغة الوثوقية

ثم إِنَّ تَحَقُّقَ هذين الشرطين صعبٌ للغاية فيما يُدعى
التعارض بينهما، بل أقسم أنك لن تجد مدَّعيًا للتعارض
مستوفياً لهما!

وإذا كان الأمر كما ترى، كان الاستدلال بالتعارض على نفي
النبوة من الطرق الوعرة الصعبة.

أضف إلى ما سبق أن الحقائق المدركة بالعقل يجب ألا
تعارض الحقائق المدركة بالمنهج العلمي التجريبي. وعليه
فإن نافي النبوة إذا استدل بالتعارض بين الخبر الوارد في الكتاب
والسنة وبين ما يُدعى أنه حقيقة علمية = فإن عليه أن يجيب
على الأسئلة التي تثيرها وجود بعض الحقائق المتعلقة
بالنبي ﷺ ويستنبط منها العقل نبوته؛ وهي كثيرة جداً!
ويصطلح العلماء على تسميتها بـ«دلائل النبوة».

وإن من العجب أن أكثر من يدَّعي التعارض إنما يستند في

التي تقدمها كثير من البرامج على اليوتيوب حول حقائق العلوم
الطبيعية؛ فكثير من كلامهم إذا حاكمته إلى ذوي التخصص وجدت أنه
لا يعدو أن يكون قولاً واحداً في مقابل عدة أقوال علمية لا تقل عنها
قوة!

حكمه على خبر جملة من العلماء، بمعنى أنه لم يقم هو أصلاً بملاحظة واختبار ما يدَّعون أنه حقيقة علمية، وهذا هو التقليد بعينه! ^(١)

وإن الإنصاف ليقضي من طالب الحق إذا واجه دعوى "تعارض" لا يتيقنها بقدر ما يتيقن بزوغ الشمس وأفول القمر = أن يتقل من سؤال هل هناك تعارض؟ إلى سؤال آخر وهو: هل هذا الوحي ثابت أم لا؟ فينظر في أدلة ثبوته في الوقت الذي يتعامل مع هذه الدعوى -دعوى التعارض- على أنها حجة مسوقة من طرف ينفي النبوة. والحجج كما هو معلوم لدارسي التفكير الناقد منها ما هو صحيح ومنها ما هو خاطئ ^(٢).

(١) قد يقول متحذلق: نعم، هي من قول العلماء الأفاضل في العلوم الطبيعي، ونحن نصدقها لنزاهتهم أولاً، ولكون ما يقولون قابلاً للاختبار من غيرهم ثانياً! فيقال: ما دمت لم تختبر نفسك فأنت مقلد، هذا أولاً. وثانياً: أنت مطالبٌ بدليل يثبت نزاهتهم إذ جعلت تقليدهم لازماً!

(٢) الكلام في هذه الفقرة على اعتبار أن طالب الحق لا يدرى إن كان النبي محمد ﷺ قد ثبتت له النبوة فعلاً أم لا.

وإذا ثبتت عنده نبوة النبي محمد ﷺ علمَ يقيناً أنه لا يمكن أن يكون فيما جاء به من الأخبار ما يعارض الحقائق التي توصل إليها البشر عبر وسائل معرفية خلقها الله فيهم، وأعني بها العقل والحواس.



الخاتمة:

إن لم تخرج من هذه الوريقات إلا بمعرفة أنَّ الغاية التي من أجلها خلق الله الثقلين هي أن تكون أقوالهم وأفعالهم الاختيارية موافقة لمراده الذي هو حق وعدل، وأن مراده سبحانه لا ينحصر في جانب من الحياة دون جانب، كما أنه لا يُدرك على وجه التفصيل إلا بالاعتصام بالوحي والتسليم له = لكفاك فائدة منها؛ إذ على هذه الحقيقة دار رحي الحق والباطل في كل زمان ومكان.

والله غالب على أمره.

للملاحظات أسعد بتواصلكم عبر البريد الإلكتروني:

mohanndjazi@gmail.com

أو على واتساب:

٠٥٠٠٠٣١٥٢٥

الفهرس

- ٧..... الغاية من الوجود
- ١٠..... -أهمية الوحي في بيان الغاية:
- ١٢..... -إمكان النبوة ووجود من ادَّعاهَا:
- ١٣..... -مواقف الناس من النبي محمد ﷺ وما يجب بالعقل على كلِّ:
- ١٨..... -دليل نقلي عقلي على أن الله لا يدع مدَّعي النبوة كذبًا:
- ٢٢..... المضمون العام للقرآن الكريم
- ٢٣..... الإنسان في القرآن
- ٢٣..... -الإنسان مخلوق لله تعالى
- ٢٦..... -الإنسان مكرم ومفضل على غيره من المخلوقات.
- ٢٨..... -الإنسان سيحاسب على أقواله وأفعاله:
- ٢٩..... الكون في القرآن
- ٢٩..... -الكون آية من آيات الله تعالى:
- ٣١..... -الكون عظيم:
- ٣١..... -الكون مسخر للإنسان:
- ٣٣..... الحياة في القرآن
- ٣٤..... -الحياة الدنيا اختبار:

- الحياة الدنيا دار زرع: ٣٤
- من الذي يحدد ما علينا فعله، الله أم الإنسان؟ ٣٦
- أصول يقوم عليها التسليم لله ورسوله ﷺ ٣٩
- الدين الحق - المتضمن لهذه الأخبار والأوامر - علم: ٣٩
- لدين الإسلام علماء: ٤١
- للتفكير حدود: ٤١
- للوحي معنى محدّد مفهوم: ٤٣
- إجماع علماء الشريعة معصوم: ٥٠
- أحكام الدّين لا تنحصر في جانب من الحياة دون جانب: () ٥٢
- محكم الوحي هو الأصل الذي إليه نردُّ المتشابه: ٥٤
- بعض المخاطبين بالوحي يسعون إلى دحضه بإثارة الشبهات حوله: ٥٨
- الأساس العقلي للإيمان بالغيب: ٦١
- الأولى: هل يمكن أن يبعث الله نبيًا تكون كل أخباره وأوامر مدرّكة بالعقل؟ ٦١
- الثانية: هل من العقلانية إنكار الغيب؟ ٦٢
- الثالثة: قد يسأل سائل: لماذا بعض الغيبات لا يستطيع أن تصورها الإنسان في هذه الحياة؟ ٦٣
- الرابعة: لماذا ورد في الوحي الأخبار التفصيلي عن غيبات يصعب

عَقْلَتُهُ التَّسْلِيمُ

- ٦٧ على العقل تصورها وبالتالي قد تكون منفرة لكثيرين ؟
- ٦٨ الخامسة: كيف تكون حقائق الإسلام كلها عقلانية ؟
- ٦٩ - ضرورة توجه العبد إلى ربه بالطلب:
- ٧٢ - التسليم لله لا يتوقف على إدراك حكمة ما يأمر به أو ينهى عنه:
- ٧٣ هل الإنسان قادر على معرفة حكمة كل موجود أو كل تكليف ؟ ...
- هل من حق الإنسان أن يعرف حكمة كل موجود ذي صلة به وكذلك
- ٧٣ كل أمر يؤمر به ؟
- ٧٤ - كمال الإنسان الأقصى في عبوديته لربه:
- ٧٥ - ليس كل ما تهواه نفسك حق وخير:
- ٧٨ - الحرية الحقيقية كامنة في قول الحق والقيام بالعدل:
- ٨٠ - العدل لا يقتضي المساواة:
- ٨٢ - الله لا يساوي بين من أذى حقه ومن لم يؤده:
- ٨٤ - يجب أن تكون القوة لأتباع الدين الحق:
- ٨٩ - رضا الله عن العبد لا يعني أن تكون له الدنيا جنة:
- ٩١ - الله تعالى خالق الظواهر الطبيعية وأسبابها المادية:
- ٩٣ - لا تعارض بين كلام الله تعالى ومكتشفات العلوم الطبيعية:
- ٩٩ الخاتمة

طُبع على نفقة مروة بنت مشاري النعيم رحمها الله

